شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية

د. شفيق محمد عبدالرحمن الرقب
جامعة مؤتة

مدخـــل

تكاثر شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، فقد ذكرت طائفة من الشعراء الذين اشتهروا بهذا الغرض، منهم أحمد بن منير الطرابلسيّ، وقـــد وُصِف بأنّه كان "خبيث اللسان، مهيناً لأعراض الرّجال، يسهل عليه الهوان، ولا يسلم أحد من هجائه" [١]، والرشيد النابلسيّ، وهو شاعر "شرس الأخلاق جـــافي الطبـــاع، غليـــظ الجواب" [٢]، وملك النحاة الحسن بـــن صـــافي، وكـــان "مُـــرّ الشتيمة" [٣]، وابن عُنَيْن، وقد وصفه معاصروه بأنّه "سخيف اللسان، قبيح الهجاء، أُغري بهجاء الناس، وتمزيق أعراضهم.. قلّ أن سلم أحد من الرؤساء والملـــوك وأرباب العلم والمناصب من لسانه" [٤]، ومحمد بن يوسف السكاكينيّ مـــن أهـــل حلب، كان "بذيء اللسان، هجّاء شرّيراً يتقى شـــره" [٥]، ومحمـــد بـــن يوســـف التّلّعفريّ "له هجاء شنيع لم يسلم منه أحد" [٦]، والأديب العرّمـــانيّ محمـــد بـــن عياش "إنسان سوء قلّ أن سلم أحد من شرّه ولسانه، قد جعل هجيراه الوقيعة في أعراض الناس وتلقيبهم، ولم يترك أحداً من الأماثل بحلب إلاّ وأظهر له لقباً ونبزه به" [٧]، والملك الزّاهر الأيوبيّ، كان "منطلق اللسان، مغرى بهجاء أسرته، وذوي الأقدار من الأمراء والصدور" [٨]، وسيف الدين السامريّ، كان "طويل الباع فـــي الهجو" [٩]، وابن المسجّف العسقلانيّ، كان "أكثر شعره في الـــهجو" [١٠]. وغـــير هؤلاء كثير. غير أنه ينبغي أن يشار هنا إلى أن المصادر التي ترجمت لـــهؤلاء

الشعراء لم تورد من شعرهم الهجائيّ إلاّ القليل، بل إنّ بعضها لم تذكر شيئاً منه، لذا فإنّ هذه الدراسة تستقي المادّة الشعريّة من دواوين الشعراء الذين أكثروا من القول في الهجاء، مثل فتيان الشاغوريّ وابن الساعاتيّ وابن عنين، بالإضافة إلى ما لم يُنشر من شعر ابن منير الطرابلسيّ[١١]، وما أوردته كتب التراجم والاختيارات من هذا الشعر لأولئك الشعراء وغيرهم.

وثمّة عوامل عدّة أدّت إلى كثرة القول في الهجاء، بعضها شخصيّ يتعلّق بالخصومات والمنافسات بين الشعراء، أو بالعلاقات الخاصّة الّتي تربط بينهم وبين أبناء مجتمعهم، وبعضها يتّصل بظروف العصر وأحواله الاجتماعيّة، ومن هذه الظروف التفاوت الشديد في مستوى المعيشة بين فئات المجتمع، إذ يستشف من بعض الأخبار أنّ عامة الشعب كانت تعاني من الفقر، وأنه كان عليها أن تعمل في المهن اليدوية في المدن، أو في الفلاحة لدى المقطعين من الأمراء وغيرهم. وكانت تفرض على هذه الفئات، على فقرها، الضرائب التي تأكل ما لديها من دراهم وزروع[١٢].

ومن هذه الظروف جور بعض الحكام والعمّال، وقد ذكرت المصادر صوراً مختلفة لهذا الظلم، وأوردت ضروباً متعدّدة من العقوبات التي كان يوقعها بعضهم على الناس، مثل الصّلب والتّسمير[١٣].

ومن هذه الظروف الفساد الإداريّ الذي دبّ في الدولة الأيوبيّة بعد وفاة صلاح الدين، وتفتّت بلاده. فقد انتهز بعض العمال فرصة الصراع بين ورثة صلاح الدين، فطفق يعسف بالرعيّة، ويستصفي الأموال منها؛ فقد كان الوزير صفيّ الدين بن شكر "إذا لاح له مال عظيم احتجنه"[١٤] وامتدّ هذا الفساد إلى عدد من القضاة الذين كانوا يظلمون الناس، ويستغلّون نفوذهم لجرّ الدنيا إليهم[١٥].

بيد أنه يجب أن يُحترس هنا من تعميم الأحكام السّابقة على العصر كلّه،

فقد قام الزنكيون والأيوبيّون بإصلاحات إداريّة واجتماعيّة واسعة، ولكنه يبقى كغيره من العصور فيه الخير والشرّ، ومن ثمّ فإن هذه الدراسة تتناول بعض المظاهر السلبية في الحياة وموقف الشعراء منها، كما تمثّلت في شعر الهجاء.

وتتناول الدراسة جانبين من هذا الهجاء، هما: الهجاء الشخصيّ، والنقد الاجتماعيّ، أمّا الهجاء السياسي فلن تعرض له الدراسة لأنّه مازج شعر المدح والجهاد، وصار محوراً رئيسياً من محاوره، بالإضافة إلى أنّ الدارسين قد تناولوا هذا الشعر وعالجوا جوانبه.

أوّلاً: الهجاء الشخصيّ

كَثُر هذا النوع من الهجاء في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة، وتعدّدت دوافعه وأطرافه، ويمكن تصنيفه إلى ما يلي:

أ-التهاجي بين الشّعراء.
ب-هجاء الأفراد.
جـ-هجاء المدن والبلدان.
د-هجاء أماكن السكنى والمرافق العامّة.

أ- التهاجي بين الشّعراء:

أشارت المصادر إلى بعض المساجلات الهجائيّة الّتي وقعت بين عدد من الشعراء الشاميّين، ومن هؤلاء الشعراء ابن منير الطرابلسيّ، وابن القيسرانيّ، فقد ذكر العماد الأصفهانيّ في معرض ترجمته لابن منير أنّه "كان.... معارضاً للقيسرانيّ في زمانه، وهما كفرسي رهان، وجوادي ميدان"، ووصفهما بأنّهما "جرير العصر وفرزدقه"[١٦]، ولم يصل إلينا من هذه المهاجاة إلاّ القليل، ويبدو أنّ العامل المذهبيّ كان له دور فيها، فقد "كان القيسرانيّ سنيّاً متورّعاً، وابن منير

مغالياً متشيّعاً"[١٧]؛ لذا فعندما بلغ ابن القيسرانيّ أنّ ابنَ منير هجاه كتب إليه[١٨]:

ابــن منـــير هجـــوت منـــي حـبراً أفـاد الـــورى صوابَـــهْ
ولـم تُضيّـق بـــذاك صـــدري فـإنّ لـــي أســـوة الصحابَـــهْ

ويبدو أنّ ابن منير كان سليط اللسان في هجائه لابن القيسرانيّ، فقد نـال في القصيدة الّتي أرسلها إلى ابن المستوفي يشكو له فيها ما فعله الحشريّة[١٩] في داره – نال من كرامة الشّاعر، واتّهمه في عرضه وشرفه، وذلك إذ يقول[٢٠]:

أتراني أكلت جـذْرَ عيـالي مثل مـا كـان يفعلُ القيسراني
أم كنفت الفلوس فـي خـالد ابنـي عـام قـادتْ عليـه أمُّ سـنانِ

وينتهز ابن منير دخول ابن القيسرانيّ دمشق، وقد صادف ذلـك انـدلاع حريق هائل في المدينة، ودخول أسراب من الجراد أتت على بساتينها وزروعها، وامتداد الأيدي بالسلب والنّهب، فيسخر من الشّاعر سخرية مريرة، إذ جعله رمزاً للشؤم وسوء الطّالع، مستعيراً له شخصيّة (طويس) الّتي يضرب بها المثل فـي التطيّر، وذلك إذ يقول[٢١]:

يا طويس الشـؤم هـذي الحركـهْ ألحقَـت جلّـقَ بالمؤتفكـهْ
جئتَـها تُذكرهـا عـهداً مضـى مـن توالـي الفتـن المشتبكـهْ
يـا رسـولَ القـدرِ الحتَـمِ الـى كـلّ مـن سـدّ عليـها مسـلكهْ
لـك رجـل قُطِعـت لـو جُمِعـت تحـت كيـوان لـهدّت فلَكـهْ
شؤمـها أسـرى مـن السـمّ فمـا دبّ للملسـوع إلاّ أهلكـهْ

ويصوّر ابنُ منير ابن القيسراني وقد تحاماه النّاس، وأخذوا يطردونه مـن كلّ مكان يحلّ فيه، فراح يتنقل من بلد إلى بلد حاملاً معه الويلات والمصائب:

شرّدتـــه طلعـــة إنْ صبّحـــت أرض قـــوم غبقتـــها الدكدكـــة
لم يمـــل وجـــهاً إلـــى مـــال ثـــرٍ قـــطّ إلاّ تركتـــــه تركـــة
لا، ولا طـــرّ لـــها شـــدق علـــى مـــأمن إلاّ وأمســـى معركـــة

وتشفّ القصيدة عن الكراهية الشديدة التـــي يحملـــها ابـــن منـــير لابـــن القيسرانيّ، لذا راح يدعو أولي الأمر في دمشق إلى دفع النّحس والخراب عـــن المدينة بطرد ابن القيسرانيّ منها:

يا مجـــير الدّيـــن مـــن دلّ علـــى ربعك المـــأهول هـــذي الهلكـــة؟!
من رمى مغنـــاك، لا ريـــع، بمـــن كـــلّ منجـــاة نحاهـــا مهلكـــة؟!
أي دار أمّـــها مـــا غمّـــها أيّ ســـتر ضمّـــه مـــا هتكـــه؟!

وتمضي القصيدة على هذا النحو من الإلحاح على استدعاء المعاني الّتـــي تصور شؤم ابن القيسراني وسوء طالعه، وكأنّ الشاعر بهذا يريد أن يحث النّاس على نبذه، وعدم الاتصال به، أو التعامل معه.

ولم يقصر ابن منير هجاءه على ابن القيسرانيّ من الشعراء، وإنّما هجـــا شعراء آخرين وهجوه، فقد كتب أبو نزار الحسن بن صافي المعروف بـ "ملـــك النحاة" إلى أحد القضاة وتصنّع في الكلام باستعمال لفظـــة (العـــاصويّ) التـــي استغربها ابن منير، فقال هذه الأبيات ساخراً من أبي نزار وعلمه، ومستهجناً هذا القياس الشاذّ[٢٢]:

أيـــا ملـــك النّحـــو والحـــاء مـــن تهجّيه مـــن تحـــت قـــد أعجموهـــا
أتانـــا قياســـك هـــذا الّـــذي يعجّـــم أشيـــاء قـــد أعربوهـــا
ولمّـــا تصنّعـــت فـــي "العـــاصويّ" غدا وجـــه جـــهلك فيـــه وجوهـــا

وقـــالوا قفـــا الشيـــخ إنّ الملـــــو ك إذا دخلـــوا قريـــــة أفســـــدوها

فأثارت هذه الأبيات حفيظة أبي نزار، فردّ عليها بأبيات اتّهم فيها ابن منير بأنّه يغير على أشعار الآخرين ويدّعيها لنفسه، ووصفـــه بأنّـــه رجـــل يســـتحق التأديب، وأخذ عليه إسرافه في هجاء النّاس وذمّهم[٢٣]:

أيـــا ابـــن منـــير حســـبت الـــهجا ء رتبـــة فخـــر فبـــالغت فيـــها
جمعـــــت قوافـــــي مـــــن ذا وذا وأفســـدت أشيـــاء قـــد أصلحوهـــا
فقـــالوا: قفـــا الشيـــخ إن الملـــــو ك إذا أخطـــأت ســـوقة أدّبوهـــــا

ومن الشعراء الذين كانوا يتبادلون الهجاء مـــع معاصريـــهم أبـــو الحكـــم الأندلسي، فقد وصفه ابن أبي أصيبعة قائلاً:" وكان أبو الحكم يهاجي جماعة من الشعراء الذين كانوا في وقته ويهاجونه"[٢٤]. ومن هؤلاء الشعراء الذين هجوا أبا الحكم العرقلة الكلبيّ، وقد استمدّ العرقلة معاني هجائه من مهنة الطب الّتي كـــان يعمل فيها أبو الحكم، فصوّره طبيباً جاهلاً يجلب الحتف إلى كلّ من يعالجه، على شاكلة قوله يدعو اللّه أن يريح النّاس منه، لأنّه طبيب شؤم لا يزور أحداً صباحاً، حتّى يكتب له قصيدة يرثيه فيها مساء[٢٥]:

لنـــا طبيـــــب شـــــاعر أشـــــتَر أراحنـــــا مـــــن شخصِـــــهِ الله
ما عادَ فـــــي صبحـــه يومـــاً فتـــى إلاّ وفـــــي باقيـــــهِ رثّـــــاه

وإمعاناً في السخرية من أبي الحكم يستعير العرقلة الكلبيّ طريقتـــــه فـــي الهجاء، فيهجوه على سبيل المرثية (وهي طريقة اشتهر بـــها أبـــو الحكـــم كمـــا سيتّضح بعد)، كما في قوله يتصنّع أساليب الرّثاء تهكّماً واستهزاء، لينتقـــل إلـــى الدّعاء على (المهجوّ المرثيّ)، لأنّه كان ضعيف العقيدة رقيق الدّين[٢٦]:

يا عين سحّي بدمع ساكب ودمِ ... على الحكيم الذي يكنى أبا الحكمِ
قد كان لا رحمَ الرحمن شيبته ... ولا سقى قبره من صيّب الدّيم
"شيخاً يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحلّ دم الحجاج في الحَرَم"

وهذه المراثي الهجائيّة ممّا اشتهر به أبو الحكم الأندلسيّ نفسه، ولعلّها تدلّ على سخرية أبي الحكم من المصير الإنسانيّ، بالإضافة إلى السخرية من المهجوّ نفسه، وممّا زاد هذه السخرية حدّة أنها كانت تصدر عن شخص وصفه معاصروه بأنّه كان "محبّاً للهو والخلاعة...محبّاً للشّراب مدمناً له"[٢٧]. وممّن نحا أبو الحكم في هجائهم هذا النحو ابن منير الطرابلسيّ، وابن القيسرانيّ، والأديب نصير الحلبيّ، والطبيب المفشكل اليهوديّ. فها هو ذا يندب نصيرا الحلبيّ – وكان قد اشتغل بالكتابة والشعر والطب والنجوم– ويصوّره وقد وضع في القبر فيضجّ الأموات منه، ويمعنون في الهرب من قبورهم لوضاعة هذا الزّائر وخبثه ونتن رائحته[٢٨]:

يا هذه قومي اندبي ... مات نصير الحلبي
يرحمه الله لقد ... كان طويلَ الذّنبِ
قد ضجّت الأموات من ... نكهتِه في التّربِ
وودّهم لو عوّضوا ... منه بكلب أجربِ
والقوم بين صارخ ... وممعن في الهربِ
ومنكر يقول ذا ... أوضع ميت مرّ بي
ما ضمّ بطن الأرض بي ... ن شرقها والمغربِ
أخبث منه طينة ... في عجمها والعربِ
وقوله لمنكر ... أسرفت يا معذّبي
أما علمتَ أنني ... شيخ لأهل الأدب

وإذا كان أبو الحكم قد رثى في الأبيات السابقة شخصاً لم يَمُتْ هجاءً له وسخريةً منه، فإنّه هجا في الأبيات التالية ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي بعد أن ماتا، وهي أبيات تشفّ عن رغبة أبي الحكم في السخرية والهزل، وتظهر قدرته على التفننّ في إخراج الصور التي تستثير الضّحك: (٢٩)

ثمّ عهدي به وقد أنزلوه القبـــر بين منكر ونكير
ثمّ قالا له ألم تك في التنجيـــم بين إفك وزورِ
ثمّ أسرفت بعد ذلك في قو لك بين المنظوم والمنثورِ
تُفحش الهجوَ ليس تُبقي على شيخ ضنين بعرضه مستورِ
فألحّا عليه صفعاً ولم ينفعه عذر، وما له من نصيرِ
ثم لم يكسترث بذلك لولا ما رأى من شماتة ابن منيرِ
عندما جاءه يقهقه ضحكاً وينادي هذا من التّعثيرِ

ويجادل ابن منير ابن القيسراني، وتحتدم المجادلة بينهما، وترتفع أصواتهما، ثم يتعاركان في القبر. ولا ريب أنّ هذا يذكرنا برسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي، وما فيها من خصومات بين الشعراء في الدار الآخرة، ولعل أبا الحكم الأندلسيّ قد تأثر بذلك.

ولم يشتهر في الهجاء شاعر شاميّ، زمن الحروب الصليبية، كما اشتهر ابن عنين، فقد أكثر من القول في هذا الموضوع، واتّسعت دائرة مهجوّيه من الشعراء وغير الشّعراء وفي ذلك يقول أبو العباس الدنيسيريّ، ويذكر أخاً لابن عنين كان قاطع طريق(٣٠):

أصاب الناس من ولديْ عنين شِدّة وشقا

قـــد اجتمعـــا علـــى ضـــرٍّ عظيـــم الخطـــب واتّفقـــا
كأنـــــهما، عدمتـــــهما علـــى الإفســـاد قـــد خُلقـــا
فـــذا الأعـــراض يقطعـــها وهـــذا يقطـــع الطرقـــا

ومن الشعراء الذين أكثر ابنُ عنين في هجائهم الرّشيد النابلسيّ، وجُلّ هجائه له كان فاحشاً، ومن أقلّه فحشاً البيتان التاليان اللذان يقرنه فيهما بالكلب خسة ووضاعة: (٣١)

شكا شعـــري إلـــيّ وقـــال تـــهجو بمثلـــي عـــرض ذا الكلـــب اللئيـــمِ
فقلـــت لـــه تســـلّ، فـــربّ نجـــم هوى فـــي إثـــر شيطـــانٍ رجيـــمِ

ويبدو أنّ سلاطة لسان الرشيد النابلسيّ قد ألّبت ابن عنيـــن وغـــيره مـــن الشعراء عليه؛ فهجوه لعلّهم يسكتونه، ومن هؤلاء القاسم الواسطيّ الّذي ألحّ فـــي هجائه على تصوير رداءة شعر الرّشيد وفساده، حتّى إنّه ألّف رسالة فيمـــا أخـــذ عليه في قصيدة نظمها في الإمام النّاصر(٣٢). وقد كان الرّشيد النابلســـي أبخـــر، فاستغلّ الواسطيّ هذه الصفة لتوليد المعاني الّتي تصف رداءة شعره، كمـــا فـــي قوله جاعلاً رائحة فمه مسبّبة عن ذلك الشعر الرديء: (٣٣)

يـــا مـــن تـــأمّل مدلويـــ ـــهِ وشـــكّ فيمـــا يُســـقمهْ
انظـــر إلـــى بخـــر بفيـــ ـــهِ ومـــا أظنّـــك تفهمـــهْ
لا تحســـبنّ بأنّـــه نَفَـــس يغـــيّره فَمُـــهْ
لكنمّـــا أنفاسُـــه نَتَنـــتْ بشِعْـــرٍ ينظمـــهْ

ب- هجاء الأفراد:

شمل هذا الهجاء شخصيات كثيرة في المجتمع، وقد صوّر الشّعـــراء فيـــه

بعض النماذج البشريّة الّتي تخرج في سلوكها عن المثل الأعلى للحياة الخلقيّة والنفسيّة القويمة. ويتّصل قسم كبير من هذا الهجاء بالحاجة المادية للشاعر، أو قل بتقصير المهجوّين في حقّ الشّاعر فيأخذ في رميهم بصفات تصوّر بخلهم وتقتيرهم؛ فقد قصد القاضي الرقّي علي بن مشرق شيرز، فلم يحظ عند أهلها، فقال أبياتاً نعى فيها إلى الناس الجود في تلك المدينة[٣٤]:

ألا نادِ في شرق البلادِ وغربها ... بصوت له في الخافقين أغاريدُ
قضى الخير والمعروف في أرض شيرز ... ومات بها من لؤم صاحبها الجودُ
وأعجب ما للّهِ أولاد منقذ ... قدورهم بيض وأعراضهم سودُ

أمّا العرقلة الكلبيّ فقد مدح قوماً، فأعطوه شعيراً بدلاً من المال، فقال يذمّهم ويصفهم بالبهائم: [٣٥]

يقولون لمْ أرخصت شعرك في الورى ... فقلت لهم إذ مات أهل المكارمِ
أجازى على الشعر الشّعير وإنّه ... كثير إذا استخلصته من بهائمِ

ويمدح ابن المسجّف العسقلانيّ قوماً أملاً في عطائهم، فيعود من عندهم خائباً، فيقول فيهم أسفاً على ضياع عمره في مدحهم حيناً، وفي ذمّهم حيناً آخر: [٣٦]

ولقد مدحتُهمُ على جهل بهمْ ... وظننتُ فيهم للصّنيعة موضعا
ورجعت بعد الاختبارِ أذمّهم ... فأضعت في الحالين عمري أجمعا

ولم يكن البخل هو الصفة الوحيدة الّتي رمى بها الشعراء مهجوّيهم، وإنّما وصفوهم بنعوت أخرى تحطّ من مكانتهم، وألصقوا بهم، الصفات المستهجنة. فهذا ابن المسجف يذمّ جماعة من أصحابه، لأنهم جبناء لؤماء بخلاء، لا

يصدقون أمل آمل، ولا يؤدّون الصّداقة [٣٧].

يـــا رب كيـــف بلوتنـــي بعصابـــة ... مـــا فيـــهم فضـــل ولا إفضـــــالُ
جبنـــاء مـــا اســـتجدتهم لملمّـــــة ... لؤمـــاء مـــا اســـترفدتهم بخّـــــالُ
فوجوهـــهم عُـــوذٌ علـــى أموالـــهم ... وأكفّـــهم مـــن دونـــــها أقفـــالُ
هم في الرخاء إذا ظفـــرت بنعمـــة ... آل وهـــــم عنـــــد الشدائـــــد آلُ

ويدعو ابن السّاعاتي على دار أحد مهجوّيه بالخراب، لما كان يدور فيـــها من أحاديث الكذب والبهتان، ولاتصاف صاحبها بالخيانة والبخل وثقل الـــرّوح، وذلك إذ يقول: [٣٨]

يا دار الأكرم لا أشْوتـــك صاعقـــةٌ ... ولا أصابتك في محل بـــذ السّـــحب
فربّ يوم غدونا في عراصك أكّالـــ ... ـــيـــن للسّـــحتِ ســـمّاعين للكـــذب
تبّت يداه فكـــم فـــي كـــلّ جارحـــة ... منه، وإن عدّ فرداً من أبـــي لـــهب
ذو النّفس مخلوقة في الثّقل من زُحل ... والكفّ مطبوعة من عقـــدة الذّنـــب

وقد تناول الشعراء الصفات الجسديّة لمهجوّيهم، وحاولوا أن يصوّروا هذه الصفات تصويراً ساخراً، على نحو ما فعل المسجّف العســـقلاني عندمـــا هجـــا شخصاً نحيلاً أحول، معتمداً على المفارقة اللفظية الّتي تثير الضحك [٣٩]:

وغريـــر كأنّـــه غصـــــن تيـــــن ... أحـــول المقلتيـــــن مـــــرّ لمـــــاهُ
قلتُ: ما الاسم قد أطـــــال عنـــاني؟ ... قال: مسعود، قلـــت: مـــن لا يـــراهُ

ويسخر سالم بن مؤمن المعري من إنسان كبـــير الأنـــف مضخمـــا مـــن صورته:[٤٠]

إن كنـــت مفتخـــراً بـــأنفك فـــهو قـــد بلـــغ الســـماءْ
لـــو كنـــت تصلـــح للإمـــارة لـــم يكـــن إلاّ لـــلـــواءْ

ويؤكد العرقلة الكلبيّ الذمّ بما يشبه المدح عندما يصف أحد مهجوّيه، فيصوّره صاحب وجه كاسف، وقوام قصير منقصف، وبنان شحيح لا يقطر بأيّ خير، وذلك إذ يقول: (٤١)

لـــك وجـــه كأنـــه الـــبدر لكـــن إذا كُسِـــفْ
وقـــوام كأنّـــه الغصـــن لكـــن إذا قُصِـــفْ
وبنـــان كأنّـــه البحـــر لكـــن إذا نَشِـــفْ

ومن الأفراد الذين أكثر الشعراء من هجائهم الأطباء، ولعلّ هذا يعود إلى أنّ بعض الّذين اشتغلوا بالطب لم يكونوا مؤهّلين لذلك، وأنّهم لم يحسنوا معالجة مرضاهم، وربّما جلبوا الأذى لهم(٤٢). وقد رأينا طرفاً من هذا الهجاء في هجـاء العرقلة لأبي الحكم الأندلسيّ. وتكاد جلّ الأشعار الّتي قيلت في هجـو الأطبـاء تدور حول فكرة رئيسيّة واحدة هي تصوير جهلهم بأصول هذه المهنـة، وعـدم معرفتهم بقواعدها العلميّة والعمليّة، كقول الشاعر الطبيب سديد الدين بن رقيقـة يهجو أحد الأطباء ويدعوه إلى ترك هذه المهنة لأنّه جاهل بها، مصوّراً الخطـر الذي يمثّله هذا الطبيب الجاهل على أرواح النّاس، حتّى إنّه غدا أشدّ خطراً عليهم من الوباء: (٤٣)

أيـا فـاعلاً خَـلِّ التطبّـب واتّئِـدْ فكم تقتل المرضى المساكين بالجهل
فـتركيب أجسـام الأنـام مؤجـل فلِمْ، لا كـلاك الله، تعجـل بـالحلّ
بهرت الوبا إذ قتلك النـاس دائمـاً وذلك في الأحيان يحدث في فصـل

وقد هجا ابنُ خروف الطبيبَ الدّخوارَ بعدد من المقطوعات حاول أن يبثّ فيها روح السخرية التهكميّة، كما في قوله يجعل الطبّ سيفاً يصول به الدّخوار على أرواح العباد: (٤٤)

طبّ المهذّب طبّه ... سيفاً وصال على المهج
بابُ السلامة لا يُرى ... منه، ولا باب الفَرَجْ

ولم يُهْجَ من الأطبّاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة أحد كما هجي الطبيب موفّق الدين بن المطران، مع أنّه كان "أمير أهل زمانه في علم صناعة الطب وعملها"(٤٥) ولعلّ ذلك يعود إلى شخصيّة ابن المطران، فقد كان -على علمه- يغلب عليه "الزّهو بنفسه والتكبّر حتّى على الملوك"(٤٦)، لذا تناول الشعراء هذه الصفة، وعرضوها عرضاً ساخراً، على شاكلة قول ابن عنين يصوّر ابن المطران يتجوّل في شوارع دمشق متكبّراً مختالاً، وقد تبعه غلامه (عمر) (٤٧):

متى أرى سيّدي الموفّق يختا ... ل ضحى في عراصها الرّحب
يمشي الهوينى وخلفه عمر ... يختال مثل المهاة في السّرب
وسيّدي كلمّا تأمّله ... تاه وأبدى غرائب العجب
تجعمسٌ قلّ من ينباظره ... في الناس إلا تعنفق الرّحبي

وقد كان ابن المطران نصرانيّاً، فأسلم، إلاّ أنّ ابن عنين ظلّ يشكّك في هجائه له، في صحّة إسلامه، ويربطه بحبه لـ (عمر) الذي سبق ذكره، وهو غلام مسلم "في غاية جمال الصورة"(٤٨)، كما في قوله يحمد الله -ساخراً- على هداية ابن المطران، لينفذ من ذلك الحمد إلى الإقذاع في هجائه: (٤٩)

الحمد لله واجب الشّكر ... فقد اهتدى سيّدي أبو نصر

واتّبـع الحـقّ حيـــن لاح لـــه ... فجر الـــهدى مـــن دجنّـةِ الفجـرِ
وقـــال إنّ المسـيح ليـس بمعبـــ ... ـــود، وأفتـــى الصليـب بالكسـر
مـــا ذاك إلا ســترٌ علـى عمـــرٍ ... ربّ انتـهاك خـير مـن السّـترِ
فقلـت يـا قـوم إنّ فـي عمـــر ... معـــذرةٌ إن ســمعتمُ عـــذري
شكـت لـه أختـه لـــهيب..... .....

وقد لجّ ابن عنين في هجاء ابن المطران، فأبغضه وحرّض السلطان على نفيه، [٥٠] ويبدو هذا الهجاء في بعض صوره ضرباً من التجارب الأسلوبيّة الّتي تستهدف إظهار القدرة على الإتيان بالصور والمعاني، كما في قوله ينسب إلـــى العامّة زعمها أنّ ابن المطران قد تشيّع، ثمّ يعجب من هذا الزّعم لأنّ الذي دعاه إلى الإسلام هو (عمر!!) [٥١]

قالوا الموفّـق شيعـيّ فقلـت لـهم ... هذا خلاف الّذي للناس منـه ظـهرْ
وكيف يجعل دين الرفـض مذهبـه ... وما دعاه إلى الإسلام غير عمـرْ؟!

وقد هجا بعض الشعراء، في إطار الهجاء الفرديّ، أقاربهم. فقد هجا سيف الدين السّامريّ خاله وخال أبيه[٥٢]، وهجا أبو الفتح البلطيّ ابـــن عمّـه وتـبرّأ منه[٥٣]. وكان ابن روبيل الأبّار، على صلاحه ونسكه، "مغرى بهجاء زوجتـــه، لأنّها أشارت عليه أن يمدح كبيراً فما نفع، فهجاه فصفع، فقال لولا زوجتي لمـــا صفعت، ولولا تغريرها لما وقعت"[٥٤]. وقد أفحش ابن روبيل في هجـــاء هـذه الزّوجة، كما في قوله يرميها بالفسق والفجور[٥٥]:

لي قطّـــة أنظـف مـــن زوجتـي ... و ..... أنظـف مـــن فيـــها
وكـــلّ منـــا صـــوّره ربّنـــا ... مـــن الخنـــا مركّـــب فيـــها

وهجا ابن عنين أباه بأبيات أشبه ما تكون بالاعتراف الذاتيّ بإحساس الشّاعر بمركّب النقص من جهة هذا الأب، إذ جعله سبب معاناته في هذه الحياة، وعلّة شعوره بالنقمة على الآخرين؛ فهو الّذي جنّبه فعل الخير، وجذبه إلى رديء الأعمال، لأنه إنسان ضئيل القدر، وضيع الهمّة، كثير العيوب، جمّ المفاسد، أينما توجّه لا يأتي بخير، وقد ورث الشاعر ذلك كلّه، يقول: (٥٦)

وجنّبني أن أفْعل الخيرَ والد ... ضئيل إذا ما عدّ أهل المناسب
بعيد عن الحسنى قريب من الخنا ... وضيع مساعي الخير، جمّ المعايب
إذا رمت أن أسمو صعوداً إلى العلى ... غدا عرقه نحو الدنيّة جاذبي

وأخيراً فقد هجا بعض الشعراء أنفسهم، ولعلّ هذا الهجاء كان يصدر أحياناً عن إحساسهم بالنقص، فقد كان العرقلة الكلبيّ شيخاً دميماً أعور، ففقاده إحساسه بافتقاد ميسم الجمال إلى التنّدر بنفسه، كما في قوله(٥٧):

حاجتي شقّة تَشوقَ على كـ ... ـلّ بغيض من الورى وحسود
ذات لون كمثل عرضك لا عر ... ضي، وحظي من القريب البعيد
فابْعثَنّها صفيقة مثل وجهي ... جلّ من صاغ جلده من حديد
واجْعلَنْها طويلة مثل قرني ... ولساني، لا مثل قدّي وجيدي
كي أرى في الشأم شيخاً خليعاً ... في قميص من العراق جديد

وعندما طالبَ الملك المعظّم عيسى الشاعر ابن المسجف العسقلاني بالزكاة، رفع إليه الشاعر مقطوعة نزّه فيها الملك أن يحصّل الزكاة منه، لأنّ ماله حرام، ولأنه لا يصوم ولا يصلّي(٥٨):

أيا ملكاً حوى علماً وجوداً ... وحاز لكلّ مكرمة وفضل
يكلّفني البهاء زكاة مال ... حرام كلّه من غير حلّ

وكيـــف يقـــوم بـــالزكوات مـــنْ لا يصـــوم ولا يحـــــجّ ولا يصلـــــي

جـــ- هجاء المدن والبلدان:

شاعت في الشّعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة ظاهرة هجـــاء المـــدن والبلدان، فقد هجا الشّعراء دمشق، وحلب، وبخارى، وسامّراء، ومصر، وغيرها من البلدان الشاميّة وغير الشاميّة. ولعلّ هذا الهجاء يناقض ظاهرة مدح المـــدن الّتي ذاعت في الشعر الشاميّ آنذاك[٥٩]. وتختلف دواعي هذا الهجاء من شـــاعر إلى آخر، فقد يكون الدافع مذهبياً على ما كان من هجاء ابن منـــير الطرابلســـي لدمشق وأهلها، وذلك في سياق القصيدة التنزيّة الّتي تحدّث فيها بأسلوب هزلـــيّ عن بعض معتقدات الشيعة، إذ حمل فيها على أهل دمشق، وجرّدهم مـــن القيـــم والفضائل، فوصفهم بالضّلال وضعف الدين، والطيش، إلى غير ذلك من الصفات الّتي تزري بهم، وذلك في قوله: [٦٠]

وأعنـــت ضـــــلاّل الشـــــآ مِ علـــى الضـــلال المشتـــهرْ
وســـكنت جلّـــق واقتديـــــ ـــت بـــهم وإن كـــانوا بقَـــرْ
بقـــر تـــرى بحليمـــهم طيـــشَ الظليـــم إذا نفَـــرْ
وهواؤهـــم كهوائـــهم وخليـــط مائـــهم القَـــذرْ
وعليمـــهم مســـتجهل وأخـــو الدّيانـــةِ محتقَـــرْ
وخفيفـــهم مســـتثقَل وثقيلـــهم فيـــه العـــبرْ
وطياعـــهم كجبالـــهم جُبلـــت وقـــدّت مـــن حجـــرْ

أمّا ابن عنين، وهو شاعر سنيّ، فقد اكتفى وهو يهجو حلب بالحديث عـــن الخلافات المذهبيّة الّتي نشبت بين أبناء المدينة، وعدّ ذلك ممّـــا يؤخـــذ عليـــها، بالإضافة إلى عيوب أخرى. يقول[٦١]:

لا عادَ في حلب زمـــان مـــرّ لـــي ... ما الصبح فيه من المســـاء بـــأمثلِ
سيّان في عرصاتـــها رأد الضحـــى ... عندي وديجـــور الظـــلام المســـبلِ
في معشر لعنـــوا عتيقـــاً، لا ســـقوا ... صوب الغمامِ، ومعشر لعنوا علـــي
قـــوم عـــهود رجالـــهم محلولـــة ... أبـــداً وعـــهد نســـائهم لـــم يحلَـــلِ

وقد لا يجد شاعر أو آخر تقديراً من أهل المدينة الّتي يقيم فيها، فيهجوها، على نحو ما فعل ملك النحاة في هجائه لدمشق، مازجاً هـــذا الـــهجاء بـــالتذمر والتهديد، وذلك إذ يقول: (٦٢)

لأرحلـــنّ مطيتـــي عـــن بلـــدة ... شعثـــاء يكـــره ماؤهـــا و هواؤهـــا
و لأرمينّ دمشـــق غـــير مُحجّـــف ... بفواقـــر التبســـت لـــها أبناؤهـــا
و لأزجرنّ العيس عنـــها معرضـــاً ... إن أقدرتنـــي دولـــة ولواؤهـــا
فإلام أغضي في دمشق على قـــذى ... والأرض نازحـــة بـــها أرجاؤهـــا

وأكثر ابن دنينير من هجاء أهل دمشق، لأنه لم يلق منهم التقديـــر الّـــذي يعتقد أنّه يستحقّه، وكان شديد الوطأة في هذا الهجاء، على نحو مـــا نـــرى فـــي الأبيات التالية الّتي يصفهم فيها بأنّهم مطبوعون على اللؤم والجهل والبخل وقول الزور، ومفطورون على فساد الأخلاق وانعدام الغيرة على الأعراض(٦٣):

لم أجد بالشّـــام مـــن يرجـــى لـــه ... جـــود كـــفّ لفتيـــل أو نقـــيرِ
خلقـــوا للـــؤم طـــرّا والخنـــى ... ومقـــال الـــزّور والجـــهل الغزيـــرِ
ودمشـــق جنّـــة قـــد ملئـــت ... مـــن أهاليـــها بأربـــاب الســـعيرِ
لا يجـــودون بمـــال أبـــدا ... بـــل يجـــودون بربّـــات الخـــدورِ
مـــا يـــرى العـــافون حظّـــاً لفـــمٍ ... عندهم، بـــل عندهـــم حـــظّ .....

وعدم التقدير هذا نجده واضحاً في هجاء ابن السّاعاتي لمصر، وقد بـــالغ في هذا الهجاء، فشمل به نهر النيل نفسه، وذلك في قوله[٦٤]:

وها مِصر لا يقضَى بها حَاجُ طالبٍ ... بغاها، ولا يُمْضَى لذي أمـــل حكـــمُ
لأبحرَ منها النّيـــل وهـــو مجاجـــة ... من البخل، لا بل أظلم القمـــر التـــمّ

ويشعر الحافظ ابن عساكر بالغربة في أثناء إقامته فـــي نيســـابور، فيـــذمّ المدينة أهلاً ومناخاً، قائلاً[٦٥]:

لا قـــدّس الله نيســـابور مـــن بلـــد ... ما فيه من صاحب يســـلي ولا ســـكنِ
لولا الجحيم الذّي في القلب من حـــرق ... لفرقـــة الأهـــل والأحبـــاب والوطـــنِ
لمت من شدّة الـــبَرد الـــذي ظـــهرت ... آثـــار شدّتـــه فـــي ظـــاهر البـــدنِ

د- 'هجاء أماكن السّكنى والمرافق العامّة:

تناول بعض الشعراء بالهجاء أماكن سكناهم، ويرتبط هذا الهجاء بالشكوى من انعدام السكن والطمأنينة، والتذمر من الفقر والحرمان، فقد ذمّ كمال الدّين بن الأعمى دار سكناه في قصيدة أوّلها[٦٦]:

دارٌ ســـكنت بـــها أقـــلّ صفاتِـــها ... أن تكثر الحسرات مـــن حشراتـــها

وقد أطال الشاعر في وصف الحشرات التي تستوطن هذه الدّار الّتي نزح عنها الخير وتباعد، ودنا إليها الشرّ من جميع جهاتها، وعبر عن آلامه ومعاناتـــه الشديدة من لدغ الحشرات، وأصواتها المزعجة، والرّوائح الكريهة الّتي تصـــدر عنها يقول:

من بعض ما فيها البعوض، عدمتـــه ... كم أعدم الأجفـــان طيـــب سِـنَاتِها
وتبيـــتُ تَسـعِدها براغيـثٌ متـــى ... غنّت لها رقصـــت علـــى نغماتـــها
وبها ذباب كالضبـــابِ يِسـدّ عيـــ ... ـنَ الشمسِ، ما طربي سوى غنّاتها
وبـــها خفـــافيش تطـــير نـــهارها ... مع ليلـــها، ليســـت علـــى عاداتـــها
وبها من الجرذان ما قـــد قصّـــرت ... عنه العتاق الجـــرذ فـــي حملاتـــها
وبها خنـــافس كالطنـــافِسِ أفرشـــت ... في أرضها، وعلت علـــى جنباتـــها

ويمضي الشاعر في قصيدته على هذا النحـــو مـــن تصويـــر الحشـــرات والزواحف التي تقيم في داره، فيذكر العقارب الّتي ترتع في ساحاتها، والبوم الّتي تعكـــف في جنباتها، وبنات وردان الّتي يفوت العيـــن كنـــه ذواتـــها، والنمـــل السليمانيّ الّتي تحطم جلده ويعاني من سطواتها، وغيرها... ويصف خلال ذلـــك قدم هذه الدار الّتي استوطنتها الجنّ، وتَصدّع جدرانها، وتهدّم سقفها، فيقول:

قد رمّمت مـــن قبـــل أن يلقـــى لا ... دم أمّنـــا حـــوّاء فـــي عرفاتـــها
شـــاهدت مكتوبـــاً علـــى أرجائـــها ... ورأيت مســـطوراً علـــى عتباتـــها
لا تقربـــوا منـــها وخافوهـــــا ولا ... تلقـــوا بـــأيديكم إلـــى هلكاتـــها

ويخلص الشاعر من هذا الوصف إلى الحديث عن آلامه ومعاناتـــه مـــن الإقامة "مفرداً" في هذه الدار الّتي وصفها بأنها "جهنم الدنيا":

كم بتّ فيها مفـــرداً والعيـــن شـــو ... قا للصّبـــاح تسـحّ مـــن عبراتـــها
وأقول يـــا رب السـموات العلـــى ... يا رازقـــاً للوحـــشِ فـــي فلواتـــها
أسـكنتني بجـــهنمّ الدّنيـــا ففـــي ... أخراي هَب لي الخلدَ فـــي جنّاتِـــها

والقصيدة بعد هذا كلّه تشفّ عن تضجر الشّاعر من حياته، وافتقاده للملاذ

الّذي يطمئنّ إليه، والصّديق الّذي يأنس به، وقد تناثرت في القصيدة بعض الصور التي تشي بذلك، فقد قرن الشّاعر، مثلاً، لدغ العقارب بإساءة الأقارب والأصدقاء إليه، داعياً اللّه أن يحميه من ذلك:

وبها عقارب كالأقارب رتّعا ... فينا، حمانا الله لدغ حماتها

وحين تحدّث الشّاعر عن الأفاعي الّتي أقامت في الدّار استعار صفات لا تكون إلاّ في بشَر:

كيفَ السبيل إلى النّجاة ولا نجا ... ة ولا حياة لمن رأى حيّاتها
السمّ في نفثاتها، والمكر في ... فلتاتها، والموت في لفتاتها

بل إنّ المبالغة في التّصوير قد تدلّ على أنّ الشّاعر كان يرمي إلى أبعد من المدلول الحرفيّ للصورة الّتي يرسمها للحشرة، كما في قوله يصف (الجراحات) التي يسبّبها له (القراد):

وبها قراد لا اندمال لجرحها ... لا بفعل المشراط مثل أداتها
أبداً تمصّ دماءنا فكأنّها ... حجّامة لبدت على كاساتها

وعندما أنهى الشّاعر قصيدته سأل اللّه -تعالى- أن يجمع شمله بمن يهواه، ويجد السكينة في جواره، ويؤنس وحدته:

واجمع بمن أهواه شَملي عاجلاً ... يا جامع الأرواحِ بعد شتاتها

وكثُر في الشّعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة هجاء الحمّامات، ولعلّ هذا يعود إلى سعة انتشارها، وافتقاد قسم منها للنّظافة وشروط السلامة العامّة.

فقد دخل كمال الدين بن الأعمى نفسه حمّاماً ضيّقاً، شديد الحرّ، ليس فيه ماء بارد، فقال يذمّه، ويصف من يدخله، مصوراً شدّة حرارته، وإظلام نواحيه، وضيق بابه الّذي يشبه طاقة سجن، وفظاظة القائم عليه، وسوء معاملته للنّاس(٦٧):

إنّ حمّامنا الذي نحن فيه ... قد أناخ العذاب فيه وخيّمْ
مظلم الأرضِ والسّما والنّواحي ... كلّ عيب من عيبه يتعلّمْ
حرج بابه كطاقة سجن ... شهد الله مَن يجز فيه ينـدمْ
وله مالك غدا خازنَ النّا ... رِ، بلى مالك أرقّ وأرحمْ
كلّما قلت قد أطلت عذابي ... قال لي اخسأ فيه ولا تتكلّمْ
قلت لمّا رأيته يتلظّى: ... ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّمْ

وقد زار جوبان القوّاس حمّاماً، مخدوعاً بظاهره وما عليه من نقوش وتصاوير، فما أن دخله حتّى أخذت الروائح الكريهة تتصاعد منه، واكتنف الظلام حجراته، وأخذ يسير فيه متلمّساً طريقه كالأعمى: (٦٨)

جئت أريد الحمّام يوماً ... فغرّتني النّقش والحصيرُ
حتّى إذا جزت نلت ريحاً ... كأنّما تنبش القبورُ
أنقلُ خوف الوقوع رجلي ... فيها كما ينقل الضريرُ
وكلّما جاء لها زبون ... قلنا: ألم يأتكم نذيرُ ؟!

ويحصي الأسعرديّ مجموعة من العيوب والمساوئ الّتي عاينها في أحد الحمّامات التي دخلها، وهي عيوب تصور عدم اهتمام القائمين على الحمام بنظافته والعناية به، وذلك إذ يقول: (٦٩)

رأيت لحمامكم ستّة ... يظلّ لها كلّ طلق عبوسا

هـواء تجمّـد منـــه الـــرؤوس ... ومـــاء يذيـب الكلـــى والنفوســـا
وســقف يـدرّ كفيـض الغمـــام ... وأرض تمـانع عنـها الجلوســـا
وطيـن تغرغـر منـه الحلـــوق ... "وعشواء تمنح"[٧٠] روحاً خسيســـا

ثانياً: النقد الاجتماعيّ

لم يقف الشّعراء الشاميّون زمن الحروب الصليبيّة عنـد حـدود الـهجاء الشخصي، وإنّما تعدوه إلى نقد بعض مظاهر الفساد الاجتماعيّ، والتنديـد بـها، وتصوير معاناة النّاس منها، ودعوة أولي الأمر إلى إزالتها والقضاء عليها. وهم في ذلك كلّه كانوا يتمثّلون مشاعر العامّة، ويصدرون عنها. وقد تعدّدت مجالات النقد الاجتماعيّ آنذاك، فشملت الحكم والإدارة، والقضاء، وظاهرة الكسب غـير المشروع، والفقهاء، والمتصوّفة، وسدنة المساجد، وغير ذلك.

وقد كثر الشّعر الّذي انتقد أجهزة الحكم والإدارة، وكان هذا النقد يوجه إلى الحكّام مباشرة، بحيث يبيّن الشّعراء فيه مواضع الخلـــل والفســاد، ويوجـهون الأنظار إليها دون مواربة. فعندما تفاقم ظلم السامريّ وزيـــر الملـك الصـالح إسماعيل، أرسل الفقيه شمس الدين المقدسيّ إلى الملك الصالح قصيدة اصطنـــع فيها أسلوب الوعظ والنّصح، شاكياً إليه فساد حاشيته وسوء صنيعهم، وسمّاهم له واحداً واحداً، آخذاً عليه اعتماده على مثل هؤلاء المفسدين، ولا سيّما على ثعلب وفضيل المنجمين اللذين أكثر الملك الصالح من استشارتهما. يقول: [٧١]

يا مالكاً لم أجد لي مـــن نصيحتـه ... بدّا، وفيها دمـــي أخشـاه منسـفكا
اسمع نصيحته مـــن أوليتـــه نعمـا ... يخاف كفرانـــها إن كـفّ أو تركـا
والله لا امتـدّ ملـك مـدّ مالكـــه ... على رعيّتـــهِ مـــن ظلمـــهِ شبكـا
ترى الحسود به مســـتبشراً فرحـاً ... مستغرباً من بوادي أمـــره ضحكـا
وزيره ابـــن غـزال والرّفيـع لـــه ... قاضي القضاة ووالي حربه ابن بكا

وثعلبٌ وفضيلٌ مـــن همـــا، وهمـــا أهل المشورة فيما ضاق أو ضنكـــا
جماعة بـــهم الآفـــات قـــد نُشِـــرت والشّرع قد مات والإسلام قد هلكـــا
ما راقبوا الله في سرّ وفـــي علـــن وإنّمـــا يرقبـــون النّجـــمَ والفلكـــا
إن كان خيراً ورزقاً واســـعاً فلـــهم أو كان شـــرّاً وأمـــراً ســـيّئاً فلكـــا

وكتب سيف الدين السّامريّ إلى طوغان حاكم البـــيرة، وأســـندمر حـــاكم طرابلس أبياتاً استنكر فيها خضوعهما لأستادارهما العلم ســـنجر ونـــائب الـــبرّ الشجاع همّام، مصوّراً سيطرة هذين الرّجلين على شؤون الحكـــم، واهتمامـــهما بشؤونهما الخاصّة، واستخفافهما بالرّعيّة، واستحلالهما دماءهـــــا وأموالهـــــا. يقول: (٧٢)

اســـم الولايـــةِ للأمـــير ومـــا لـــه فيـــها ســـــوى الأوزار والآثـــامِ
وجبايـــةُ القتلـــىٰ وكـــلّ مصيبـــــة تجبـــى منافعـــها إلـــــى همّـــامِ
ســـيفان قـــد وليـــا وكـــلّ منـــهما مـــاضي العزائـــم دائـــمِ الإقـــدامِ
وبيـــابِ كـــلّ منـــهما علـــم بنكّـــــ ـــل ما يجـــود بـــه مـــن الإنعـــامِ
ما النّـــاس عندهمـــا بنـــاس لا ولا يزيـــان هـــذا النـــاس كالأنعـــــامِ
وقد استحلا منـــهم مـــا لـــم يـــزل مـــن مالـــهم ودمائـــهم بحـــرامِ
فمتى أرى الدنيـــا بغـــير ســـناجر والقطـــعِ والتنكيـــس للأعـــلامِ

واستهجن شعراء آخرون سياسة بعض الحكام الّتي تخالف المعـــهود فـــي سياسة الدولة الإسلاميّة، فعندما استوزر الملكُ الأمجد بهرام شاه مـــهذّب الديـــن السامريّ، قال فتيان الشّاغوريّ أبياتاً استغرب فيها أن يقوى نفوذ اليهود في دولة الملك الأمجد، وأنكر عليه استيزاره للسامريّ الّذي أكثر من استخدام أقاربه مـــن السّمرة، فـــ "كثر منهم العسف وأكل الأموال والفساد"(٧٣)، ودعاه إلى الفتك بهم، والقضاء عليهم: (٧٤)

الملـك الأمجـد الـذي شـهدت ... لـه ملـوك الزّمـان بـالفضلِ
أصبـح فـي السـامريّ معتقـداً ... ما اعتقـد السـامريّ فـي العجـلِ
والسّـامريّون كـالبرامك مـن ... قبـل، فـأين الرّشيـد للقَتـلِ؟!

ونزع بعض الشعراء في تعريضهم بالحكّام إلى تشويه صـورة المـهجو ونعته بكل قبيح منفّر، من ذلك قول محمد بن سوار بن إسـرائيل يصـف أحـد المتولّين الجائرين، جاعلاً إيّاه شؤماً على الرعيّة، ومصوّراً المفارقة الأخلاقيّـة في سلوكه، وانعكاس الأحوال في عهده: (٧٥)

يـا فـاضح الديـن والدنيـا بسـيرته ... وقـامع العـدلِ والإحسـان والجـودِ
قد ضاق ظاهر ما في الأرض منك فما ... بباطن الأرض ميـت غـير محسـودِ
خفّض عليك فإن النـاس قـد أيسـوا ... من خضرة العيش في أيّـامِك السـودِ

وإمعانا في الانتقاص من قدر الحكّام، استعمل الشعراء صور الحيوانـات والحشرات وقارنوا المهجوّين بها، كما في قول البديع الدمشقيّ يشبّه أحد الحكّام بالبهيمة(٧٦):

حـاكمكم بهيمـة ... ليسـت تسـاوي العلفـا
وليـس فيـه مضغـةٌ ... طيّبـة إلاّ القفـا

ويعرّض العلم الشاتاني بالوزير صالح بن العجميّ ويصفه بأنـه "تيـس" ويستطرد إلى ذكر العماد الأصفهاني(٧٧):

وزارة التيـس أبـي فاسـد ... قد عمّ أهل الأرض منـها الفسـادْ
عـاندَ علمـي جهلـه مثلمـا ... هدّ قـوى الفضـلِ بقصـدِ العمـادْ

وتعرّض بعض الشعراء في نقدهم للحكّام إلى أخلاقهم وسلوكهم، فقد هجا ابن دنينير ابنَ يعلى وزير الملك الظاهر بحلب في عدّة مناسبات، من ذلك قولـه يصفه باللؤم والجهل وضعف العزيمة والحمق وسوء الأخلاق[٧٨]:

ما إن سمعتُ ولا رأيتُ ولـن أرى ... لؤماً يماثل لؤم عبد الباقي
هو جاهل واهي العزيمة أحمق ... صعب العريكةِ ضيّق الأخلاقِ
فلو أنّ رجليه بخفّة رأسهِ ... لغدا يفوت نواظر الأحداقِ

وينتهز ابن دنينير مناسبة حجّ المعتمد والي دمشق لينعته بالرّياء، ويتّهمه بأنّه حجّ خوفاً من الملك المعظم عيسى لا خشية من اللّه. يقول: [٧٩]

حججتَ يا شرّ خلق الله كلّهم ... لمّا تعرّيت من مال ومن جاهِ
وكان حجّك يا من لا خلاق له ... خوف المعظّمَ لا خوفاً من اللهِ

وقد أفحش عضرس الحلبيّ في هجاء أحد رؤساء حلب، فرماه في شرفه ورجولته، وذلك إذ يقول[٨٠]:

شكت ابنَ صفر عرسه وتظلّمت ... عدم الجماع وقلّة الإنفاقِ
فأجابها بتدلّل وتخضّع ... والدمع منحدر من الأماقِ
بي مثل ما بك يا حمامة فاسألي ... من حلّ قيدك أن يحلّ وثاقي

وكتب ابن الساعاتيّ إلى بعض الأكابر، وقد ولي ولاية، أبياتاً عنّفه فيها على تكبّره على النّاس، مبيناً له أنّ هذه الولاية لن تدوم وأنها "كأحلام نائم". يقول[٨١]:

تتيــه علينــا أن وليـت ولايـــة ... رويـداً فمـا شـيء لديـها بدائـمِ
وما المال ذا نفع وإن كـان سـالماً ... إذا كان عرض المرء ليـس بسـالمِ
فما هـي إلاّ مثـل طيـف مسـلّم ... ومـا عِزّهـا إلاّ كـأحلام نـائمِ

وقد صاغ شعراء آخرون نقدهم للحكّام بأسلوب هزليّ تتبـدى فيـه روح السخرية بقوّة، ولعلّ أشهر أولئك الشاعر ابن عنين الّذي ثابر على هجاء الحكّام في عصره، وآثر ألاّ يأوي إليهم، ولا يكفّ عن ذمّهم، حتـى اقتحـم بأهاجيـه غضبهم، وإحن صدورهم. ومن يقرأ هذا الهجاء يشعر أنه يعـبّر عـن تجربـة إنسانية عميقة فيها قدر طاغ من حدّة الإحساس وقوّة الشعور. فها هـوذا ينتقـد الجهاز الإداريّ لمدينة دمشق، فيذمّ بدر الدين مودوداً شحنة المدينة، ويضمّ إليـه طائفة كبيرة ممّن يعملون معه، ويتّهمهم في أمانتهم وكفايتـهم، ويرميـهم فـي أخلاقهم وسلوكهم[٨٢]:

ما عِنـدَ مـودود مَـن قلّـتْ مثالبـهُ ... إلاّ المبـارز إبراهيـم نائبـهُ
ومـن سِـواه فكلـبٌ لا خـلاقَ لـه ... قد أعجزتنـي فمـا تحصـى معايبـهُ
المستشار عفيـف الدّيـن قـد دميـت ... يـدي علـى لومـهِ ممّـا أعاتبـهُ
وابن النفايةِ والتّيس الشريـف وجعـ ... ـس الكلب مشرفـه والعلِـق كاتبـهُ
والأقلف الكلب رأس الأمر صاحب ديـ ... ـوان الأمـير وجابيـه وحاسـبهُ
والأحمق الجاهل الكرديّ يسـأل فـي ... حبـس العقيبـةِ عـن علـق يداعبـهُ

ويهجو ابن عنين أمير البيرة بدر الدّين حسـناً، فيتـهكّم بـه، ويصـوّره تصويراً مضحكاً، وذلك إذ يقول[٨٣]:

لنـا أمـير قرنُـه ... ينطـح فـي الأفـق الفلـكْ
عطـاؤه وطعنـه ... مـا غـير دقٍّ بـالحنكْ

فـــــهم الذّنـــــابى أبـــــــدا فـــــي أيّمـــــا جيـــش ســـــلكْ
كأنّـــــه فـــــي قلعـــــةِ البيـــــــ ـــــــــرةِ صيّـــــادُ السّـــــمكْ

وعندما نُفي ابن عنين من دمشق، استنكر ذلك، وهتف في وجـــه مقدّمـــي الدولة قائلاً[٨٤]:

لو كنت أسودَ مِثـــل الفيـــل هامتـــه عَبل الذّراعين في غرمولـــــه كِـــبَرُ
كانت حوائج مثلي عندكـــم قضيـــت لكنّنـــي أبيـــض فـــي أيـــدِهِ قِصـــرُ

وبعد أن أذن له الملك العادل بالعودة إلى دمشق، عاد إليها قوىّ النّفـــس، وهو ينشد[٨٥]:

هجـــوت الأكـــابر فـــــي جلّـــق ورعت الوضيـــــع بـــهجو الرّفيـــعِ
وأخرجـــــت منـــــها ولكننـــــــي رجعت على رغـــم أنـــفِ الجميـــعِ

وتناول الشعراء في سياق نقدهم لأجهزة الحكم والإدارة ظـــاهرة الكســـب غير المشروع واختلاس أموال الدولة والثراء على حساب الشّعب. فقـــد اســـتهل ابـــن منير الطرابلسيّ قصيدته الّتي قالها في هجاء القاضي الأعزّ أبـــــي الفتـــح محمدّ بن عبدالله التميمي، قاضي صور، بأبيات صوّر نفسه فيها يقف عند بـــائع خبز يستدين منه، وبينما هو كذلك، يمرّ موكب القاضي، فينشبّث ابن منـــير بـــه، فيأخذه القاضي معه إلى بيته، ثمّ يأخذ ابن منير في وصف هذا البيت وما فيه من بـــذخ ونعيم، وكأنّه يوجه الأنظار إلى هذا القاضي وأمثاله ممّـــن أثـــروا علـــى حساب الشعب، وغرقوا في النعيم، بينما لا تجـــد العامّـــة (رغيـــف الخـــبز) إلاّ دَيْناً[٨٦]:

كنتُ يوماً في بـــاب جـــيرون أتلـــو آيـــة الدّيـــنِ عنـــد بيّـــاعِ خـــــبزِ

فـــإذا وقـــع بغلـــة وغـــلام ... يقـرع النّـاس بيـن دفـع ولـهزِ
وعليـها فتـى ضئيـل المحيّـــا ... مكـثر مـن ملوّنـات وطـرزِ
قلت: من ذا؟ فقيل: قـاضٍ جليـل ... لقّبـوه فـي بيتـه بـالأعزّ
وهو يـأوي إلـى ذكـاء وفضـل ... قلت: يا نفـس قـد ظفِـرت بكـنزِ
فتدانيـت ثـمّ سـلّمت فاستفـ ... ـرس حتّى استبانَ جمعي وفـرزي

******

فدخلنـا الدهلـيزَ فـابتدر الإذْ ... ن فـأُغرقت فـي دمقـسٍ وخـزّ
بيـن دسـت وسـلّة ودواة ... ورقيـق مـن تسـتري وقـزّ
ودعا بالطعام فاخترت مـن حلـ ... ـوٍ ومن حـامض المـذاق ومـزّ

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو من وصف ما رآه في بيت هذا القاضي من مظاهر البذخ والترف. وحين يأسى فتيان الشاغوري لموجات الغلاء التي توالت على بلاد الشّام، يلتفت إلى أولئك الذين احتجنوا الأموال، وسكبوها في دورهم، بينما تعاني الرعيّة من الجوع والضنك. يقول[٨٧]:

هم أطلقوا طَرْف الغلاء فجاءنا ... عن طرْف رخص بالغلاة مقيّدِ
ما بين جدب نحن فيه ورخصهم ... إلاّ كغلوة سَهم رامٍ جيّدِ

وقال أبو شامة المقدسيّ قصيدة طويلة صوّر فيها فساد القائمين على أموال الوقف في دمشق لعصره، ووجد عليهم موجدة شديدة، لأنّهم كانوا يتصرّفون في هذه الأموال على غير هدى، وينفقونها حسب أهوائهم ورغباتهم، ويحرمون منها مستحقّيها من طلبة العلم، وممّا قاله فيها[٨٨]:

اتّخـذ حِرفـة تعيـش بـها يـا ... طـالب العلـم، إنّ للعلـمِ ذكـرا

لا تُهنــه بالاتّكــالِ علــى الوقـــــ ـــفِ، فيمضي الزمان ذلاً وعســـرا
إنمـــا تحصـــل الوقـــوف لشرّيـــــ ـــــر مـــــن العلـــــومِ مـــــبرّا
أو لمـــن يلـــزم الأكـــابر لا يبـــــ ـــرح في خدمـــــة ومـــدح وإطـــرا
والضعيف المشغول بـــــالعلم يلقـــى من ولاةِ الوقوفِ هَجـــــرا وهُجـــرا

وعمل سيف الدّين السامريّ أرجوزة سمّاها السامريّة، أوّلها[٨٩]:

يـــا ســـائق العيـــس إلـــى الشـــــأم وقـــــاطع الوهـــــادِ والأكـــــــامِ

"حطّ فيها على الكتّاب، وأغرى النّاصر بمصادرتهم"، إلا أنّ هذه الأجوزة لم تصل إلينا.

بيد أنّ ابن عنين كان أكثر الشعراء جرأة في الحديث عن بعـض العمّـال والمستخدمين الّذين أطلقوا أيديهم في أموال الرعيّة ولا سيّما في دولـــة الملـك المعظّم عيسى، فعندما أمر هذا الملك بأن تسلسل أبواب الجامع الأمويّ بدمشـق، التمس ابن عنين تعليلاً لذلك، ليطعن به في أمانة سدنة المســـجد الّذيـــن نـــهبوا أمواله. يقول[٩٠]:

لمّـــا رأى الجـــامع أموالـــــه مأكولـــة مـــا بيـــن نوّابـــهِ
جُـــنّ فمِـــن خـــوف عليـــه غـــدا مسلســـلا مـــــن كـــلّ أبوابـــهِ

ولمّا أمر الملك المعظّم عيسى بنزح ماء خندق القلعة بدمشق، ونال الناسَ من ذلك جهد عظيم، انتهز ابن عنين ذلك ليلمز أحد القضاة ويطعن في أمانتـــه، فاقترح على الملك المعظم أن يضع هذا القاضي يديه في الماء فينزحه، ولا يبقي منه شيئاً[٩١]:

أرِح من نزح مـــاءِ الـبرجِ يومـاً فقـد أفضـى إلـى تعـب وعـيّ
مرِ القـاضي بوضـعِ يديـه فيـه وقـد أضحـى كـرأسِ الدّولعـيّ

ويقترب ابن عنين من الرّوحِ الشعبيّةِ اقتراباً شديداً في ألفاظـه وأسـاليبه، حين يهجو صاحب خزانة الملك المعظم عيسى، ويجرّده من كـلّ فضيلـة، ولا سيّما من الأمانة على أموال الخزانة[٩٢]:

يا مليك الدنيا الّـذي أعظـم اللـ ـه بتـأييد عـزّه سـلطانهْ
أنـا أشكـو إليـك جـور رقيـع لقّبـوه الصّفعـان تـاج الخزانـهْ
عدم العقـل والمـروءة والإحسـ ـان والديـن والحيـا والأمانـهْ
وحوى اللؤم والرّقاعـة والخسّـ ـة والجـهل والخنـا والخيانـهْ
زعمـوا أنّـه حفيـظ علـى المـا لِ أمين؛ قلت: اسـكتي يـا فلانـهْ

وكان كثير من القضاة في بلاد الشّام زمن الحـروب الصليبيّـة عرضـة لهجاء الشعراء ونقدهم، مع أنّ عدداً منهم كان مشهوداً له بالعدل والنزاهة، فقـد انتقد ابن دنينير القاضي حجة الدين الشهرزوريّ، وشهّر بـه، ونعتـه بالجـهل والظلم والفسق والفجور، وذلك في قوله[٩٣]:

قـاضٍ غـدا فـي الويـلِ والثبـورِ
مِـن قبـحِ مـا يـأتي مـن الأمـورِ
فـي بخلـه ولؤمـه المشـهورِ
والظلـم والجـور وقـولِ الـزّورِ
وجهلـه المركّـب الموفـورِ
معـترف بالفسـق والفجـورِ

وتذكر المصادر أنّ القاضي شرف الدين بن الزكيّ كان "نزهاً....عفيفاً"[٩٤]، إلاّ أنّه لم يسلم من لسان ابن عنين الّذي كتب إلى الملك المعظم عيسى أبياتاً يتّهم فيها هذا القاضي بالميل إلى النّساء، ويدعوه إلى اتخاذ الإجراءات بحقّه[٩٥]:

أقولها لو بلغت ما عسى ... فالطبل لا يضرب تحت الكسى
قاضيك إن لم تقصه فاخصه ... أوْلا فلا يحكم بين النّسا

وعندما لا يجد ابن عنين ما يطعن به في نزاهة القاضي ابن أبي عصرون يستحيل نقده له ضرباً من العَبَثْ، كما يقول هو نفسه[٩٦]:

وما هجوت ابنَ عصرون أروم به ... فضلا، ولا نلت من فخر ومن شرفِ
لكنْ أجرّب فيه خاطري عبثاً ... كما تجرّب بيض الهند في الجيفِ

وقد توالى على منصب قاضي القضاة في دمشق في النّصف الثاني من القرن السّابع الهجريّ عدد من القضاة الّذين لم يتحرّوا العدل في أحكامهم، ومن هؤلاء أحمد بن هبة الله الملّقب بالصدر بن سنيّ الدولة، الّذي "كان مراعياً لأرباب الجاهات كثيراً"[٩٧]، فاستشهد النجيب بن الشقيشقة "لأجل جاه كان النجيب متّصلاً به، وميّزه بأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جامع دمشق، فعجب الناس منه، وأنكروا ما فعله"[٩٨]، لأن النجيب "كان مشهوراً بالكذب ورقّة الدّين وغير ذلك"[٩٩]. وقد قال أحد الشعراء الشاميين ثلاثة أبيات أنكر فيها بشدّة على القاضي صدر الدين أن يولّي رجلاً موصوفاً بانحلال العقيدة والجهل بأحكام الشّرع عقد الأنكحة للمسلمين والأبيات هي[١٠٠]:

جلس الشقيشقة الشقّي ليشهدا ... بأبيكما ماذا عدا ممّا بدا ؟!
هل زلزل الزلزال أم قد أخرج الـ ... ـدجّال أم عدم الرّجال ذوو الهدى ؟!

عجبـاً لمحلـول العقيـدةِ جـــاهل بالشّرع قـــد أذنـوا لـــه أن يعقِـدا

وعندما عدّل القاضي الصّدرُ بن سنّي الدولة جمالَ الدين بن اليزديّ، وخلع عليه خلعةً بطيلسان، وأحضره مجلسه مع العدول، وأشهد عليه، قـــال الشـــاعر سيـــف الدين السامريّ قصيدة زفّ فيها إلى الناس، بأسلوب تهكميّ، نبأ تعديـــل ابن اليزديّ وجلوسه للنظر في أمورهم، عاداً ذلك فرصـــة ســـانحة للمجـــاهرة بالمعاصي والانغماس في اللهو والمجون، لأنّ ابن اليزديّ نفســـه يفعـــل ذلـــك. يقول[١٠١]:

طاب شرب المـــدامِ فـــي رمضـــان واصطفـــاق العيـــدان عنـــد الأذانِ
والزّنا واللـــواط فـــي حـــرم اللـــ ـــــهِ وتـــرك الصـــلاةِ بـــالقرآنِ
منذ صار اليزديّ في ســـكك الشـــا مِ يطـــوف الحانـــاتِ بالطيلســـانِ
وإذا صارت العدالـــة فـــي الفسّـــ ـــاقِ واللائطيـــن بـــالمردانِ
فجديـــر بـــأن أكـــون نبيّـــاً ويكون الصدّيـــق لـــي التلمســـاني
يا عدول الشـــآم قـــد ســـمح القـــا ضـــي لأصحابـــه بنيـــل الأمـــاني
قامروا واشربوا وقـــودوا ولوطـــوا وافســـقوا والحـــدوا إذن بأمـــانِ
وارفعـــوا عنكـــم التســـتّر بالفســـ ـــقِ فـــلا حاجـــةٌ إلـــى كتمـــانِ

وقد كانت هذه الطريقة في النقد بالغة التأثير، فعندما بلغت الأبيات القاضي صدر الدين "عزّ عليه، وأعرض عن اليزديّ، ومنعه من الشهادة"[١٠٢].

وذكر أبو شامة المقدسيّ في كتابه (الذيل على الرّوضتيـــن) أنّـــه تولّـــى القضاء في زمانه ثلاثة مشهورون بالفسق والظلم، هم النّجم بـــن الصـــدر ســـنيّ الدولة، وكان "حاكماً جائراً فاجراً ظالماً متعدياً[١٠٣]، وابن الجمال المصريّ الّذي "لم تكن طريقته مستقيمة"[١٠٤]، والرّفيع الجيليّ الّذي "فعل بالنّاس الأفاعيل"[١٠٥].

وقد قال أبو شامة ثلاثة أبيات حصر فيها هؤلاء القضاة ونوّابهم، مصوّراً فظاظتهم، واستشراء فسادهم، وابتلاء النّاس بهم[١٠٦]:

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت ... من القضاة بجهّال وأوقاح
بأعجمين ومصريّ وصائغهم ... والأربليّ وخيّاط وفلاّح
هم ضعف ستّة والنّواب كلّهم ... ضعفان، أحزانهم أضعاف أفراح

ولمّا كثر تعدّي النجم بن الصدر سنيّ الدولة عزل، وأرسل إلى مصر. وقد صوّر أبو شامة المقدسيّ ردود الفعل الشعبيّة بعد أن سمع الناس بعزل القاضي ومغادرته دمشق، فقال: "ثمّ سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة... والدّعاء عليه كثير، والتظلّم منه شائع، والدعاوى عليه كثيرة"[١٠٧]. وقد قال العماد داوود بن الحمويّ في ذلك قصيدة تمثّل فيها مشاعر الدمشقيين الغاضبة إزاء هذا القاضي المخلوع الّذي فتق الشّرع، واحتال على الخلق، وبدّد الأموال، مصوّراً شماتة النّاس به، وكراهيتهم له، وتفنّنهم في ذمه، وممّا ورد فيها[١٠٨]:

نجم أتاه ضياء الشمسِ فاحترقا ... وراح في لجج الإدبارِ قد غرقا
ناحَت عليه الليالي وهي شامتةٌ ... وعرّفته صروف الدّهر ما اختلقا
وحدّثته الأماني وهي كاذبة ... بأنّه لا يرى بعد النّعيم شقا
وجاد بالمالِ كي تبقى رئاسته ... وفتّق الشّرع والتّقوى وما رتقا

******

وألقيت في قلوب النّاسِ بغضته ... لكنّهم قد غدوا في ذمّهِ فِرقا
ففرقة بقبيح الظّلم تذكره ... وفرقة حلفت باللّه قد فسقا
وفرقة سلبته ثوب عصمتِه ... بأنّه من رباطِ الدّين قد مرقا

وزاد أبو شامة من قوله:

وفرقــة وصفتــه بالخلاعــة مــع خبثٍ وكــبر وكــلّ منــهم صدّقــا

وفي سنة ٦٦٣هـ اجتمع على ولاية القضاء بدمشق، وفي زمــن واحــد، أربعة قضاة، وجعل كلّ واحد منهم قاضي القضاة لأحد المذاهب الأربعة، وقــد استهجن أبو شامة المقدسيّ ذلك قائلاً: "وهذا شيء ما أظنّه جــرى فــي زمــان سابق"[١٠٩]. وكان لقب ثلاثة من القضاة شمس الدين، فاتخذ الشعراء مــن ذلــك مناسبة للتندّر والسخرية، كما في قول أحد الظرفاء[١١٠]:

أهــل دمشــق اســترابوا مــن كــثرة الحكــامِ
وهــم جميــع شمــوس وحالــهم فــي ظــلامِ

وقول آخر:

أظلــم الشــام وقــد ولــي الحكــم شمــوس
ليــس فيــهم مــن يبــتّ الحكــم علمــا أو يســوس

وقد اتّسعت دائرة النقد الاجتماعيّ في الشّعر الشــاميّ زمــن الحــروب الصليبيّة، فشملت الفقهاء والمتصوفة والوعّاظ وأئمة المساجد. فقد استرعى انتباه ابن عنين ما كان يدور في ردهات المسجد الأمويّ بدمشق من جدل بين بعــض الفقهاء، وما صاحب ذلك من انفعالات وارتفاع أصوات، فصوّر ذلــك تصويــراً ساخراً، وذلك إذ يقول[١١١]:

البغل والجــاموس فــي جدليــهما قد أصبحــا عجبــاً لكــلّ منــاظرِ

بـــرزا عشيّـــة يومنـــا لتجـــادل ... هـــذا بقرنيـــه وذا بالحـــافرِ
مـــا أتقنـــا غـــير الصيـــاح كأنّمـــا ... لقنا جدال المرتضى بـــن عســـاكرِ
لفظ طويل تحـــت معنـــى قـــاصر ... كالعقل فـــي عبداللطيـــف النـــاظرِ
اثنـــان مـــا لـــهما وحقّـــك ثـــالث ... إلاّ رقاعـــة مدلويـــهِ الشّـــاعرِ

وقد سخر شهاب الدين بن غانم، وهو متصوّف، من الفقهاء الّذين يعتكفون في المساجد في رمضان، فيشبّههم بالشياطين الّتي تغلّ في ذلك الشهر[١١٢]:

ما اعتكـــاف الفقيـــه أخـــذاً بـــأجر ... بل لحكـــم قضـــي بـــه رمضـــانُ
هـــو شـــهر تغـــلّ فيـــه الشياطـــ ... ـــين، ولا شـــكّ أنّـــه شيطـــانُ

أما الشّاعر حوبان القوّاس فقد سخر مـــن حـــالات الوجـــد التـــي يزعـــم المتصوّفة أنّهم يمرّون بها، فقال على طريقتهم متهكما بهم[١١٣]:

متّ في عشقـــي، ومعشوقـــي أنـــا ... ففـــؤادي مـــن فراقـــي فـــي عنـــا
غبـــت عنّـــي فمتـــى أجمعنـــي ... أنا مـــن وجـــدي منّـــي فـــي فنـــا
أيّـــها الســـامع تـــدري مـــا الّـــذي ... قلـــت والله ولا أدري أنـــا

وكان في ظاهر دمشق خان قد جمع أنواع أسباب الملاذّ، ويجري فيه من الفسق والفجور ما لا يحدّ ولا يوصف، فهدمه الملك الأشرف، وعمـــره جامعـــاً، وسمّاه الناس "جامع التّوبة". وقد ولّى الأشرف الجمال السبتيّ إمامـــة الجـــامع، وكان يلعب في صباه "بشيء من الملاهي، وهي الّتي تسمّى الجغانة"، فلّما توفي تولى موضعه العماد الواسطيّ "وكان يتّهم باستعمال الشراب[١١٤]، وكان صاحب دمشق آنذاك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فكتب إليه ابن الزويتينة الشاعر أبياتاً، على لسان المسجد، يذّم فيها أخلاق الإمام، ويشرح له ما أصابه من ضرّ،

حاثّاً، بأسلوب ساخر، على ردّه إلى حالته الأولى[١١٥]:

يـــا مليكـــاً أوضـــح الحـــــ ـــــقّ لدينـــــا وأبانـــــة
جـــامع التوبـــةِ قـــد قلّدنـــــ ـــــي منـــــك أمانـــــة
قـــال: قُـــلْ للملـــك الصـــا لـــحِ أعلـــى الله شانـــه
يـــا عمـــاد الديـــن يـــا مَـــن حمـــد النـــاس زمانَـــه
كـــم إلـــى كـــم أنـــا فـــي ضـــ ـــــرّ وبـــؤس وإهانـــة
لـــي خطيـــبٌ واســـطيّ يعشـــق الخمـــر ديانـــة
والّـــذي قـــد كـــان مـــن قبـــ ـــــل يغنّـــي بجغانـــة
فكمـــا نحـــن فمـــا زلنـــ ـــــا، ومـــا نـــبرح حانـــة
ردّنـــي للنّمـــ ـــــطِ الأوّ ل، واســـتبق ضمانـــة

الدراسة الفنيّة

اتّخذ كثير من شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيـــة شكـــل مقطوعات قصيرة تعبّر عن فكرة واحدة بإحكام، بحيث يشعر القارئ عند الانتهاء منها بالاكتفاء. وهذه المقطوعات ليست أجزاء من قصـــائد ضـــاع أكثرهـــا، أو اختيارات من قصائد طويلة، وإنما هي مقطوعات في صورتها الأصليّة الّتي قالها الشّعراء.

وتتخذ هذه المقطوعات صورتين رئيستين، الأولى أن تكون المقطوعة في بيتين لا يمكن الفصل بينهما، ويعبّران عن معنى تامّ لا يقبل التطوير، كمـــا فـــي قول ابن المسجّف العسقلاني يسجل بعض الظواهر الّتي أنكرها النّاس في عصره في دمشق(١١٦):

ثلاثـــة أشيـــــاء ثقلـــــن بجلّـــق ... على كـــلّ قلـــب بـــالدليل المحقّـــق
تزهّد قاضينا الخويّ وطرحة الشّهـــ ... ـــاب وإســـلام الحكيـــم الموفّـــق

والصّورة الثانية أن تكون المقطوعة في ثلاثة أبيات أو أكثر تتطوّر حتّـــى تبلغ نهاية مرسومة لا تتجاوزها لتمام المعنى بها، كما في الأبيات التاليـــة الّتـــي كتبها شهاب الدين بن غانم إلى جمال الدين يشكو له رجلا يدعـــى الســـيف بـــن المغيزل(١١٧):

مولايَ قـــاضي القضـــاة يـــا مَـــنْ ... لـــه علـــى العبـــدِ ألـــف منّـــة
إليـــك أشكـــــو قريـــــنَ ســـــوءٍ ... بُليـــتُ منـــــــه بـــــألف محنـــــة
شهرتـــــه بيننـــــــا اعتـــــداء ... أغمـــده فالسـيفُ سـيفُ فِتنَـــــة

وقد لا يأتي السّياق مكتملاً في المقطوعة، وإنّما يترك الشّـــاعر للقــارئ إتمامه، كما في قول ابن السّاعاتي في هجاء ابن سناء الملك[١١٨]:

أتَعبــثُ بـــي غائبــاً يــا ســـــعيد ... أما لـــو حضــرتَ لأدّبــتَ جنَــك
ولســتَ أقــول هجـــــاء يشيـــن ... يكفيك علمــك يــا مجــد أنّــك....

وقول ابن المهنا في الأبيات التّالية الّتي أنفذها إلى قاضي حلب يشكو فيها نائبه وكاتبه[١١٩]:

لا عجــب أن خــرب الشـــــام أو ... أقـــوت مغانيـــــه ولا غَـــــرْو
قــد أصبــح المجــد بــه حاكمـــاً ... وأصبــح المنشــي لـــــه صنْـــو
مَولاي، محيـــي الديــن، غيّرهمـــا ... عنّـــا، فتحــوى شكرنـــــا أوْ ....

وقد تكتفي المقطوعة بالإيماء إلى المعنى دون ذكره، فتــترك فــي نفــس القارئ أثراً مسترسلاً، كما في قول ابن عنين يخاطب الملك المعظم عيسى وقــد أرهق النّاس بنزح ماء خندق القلعة بدمشق[١٢٠]:

أرِح من نــزحِ مــاء البــئر يومــا ... فقــد أفضــى إلــى تعــب وعــيّ
مُرِ القـــاضي بوضـــع يديـــه فيـــه ... وقــد أضحــى كــرأسِ الدّولعـــيّ

وتمتاز المقطوعات الهجائية بالإيجاز والتكثيف ممّا يمنحها حــدّة لاذعــة، كما في قول سيف الدين السامريّ يهجو أهل دمشق[١٢١]:

قَبّــح اللّــه كــلّ مــن بدمشـــــق ... من أصيحابنا ســـوى ابــن ســعيدِ
فــهو علــى شحّــهِ ومــا يتعاطـــا ... ه مــن اللــؤمِ أصلــح الموجـــودِ

وتستعين بعض المقطوعات بالسخرية القائمة على مفاجأة القارئ بمعنى ظريف أو صورة طريفة، كما في قول ابن عنين يتهكّم بشرف الدّين يعقوب الّذي كان يُسمع الحديث بجامع دمشق[١٢٢]:

رأيت النبيّ عليه السّلام ... فقمت إليه وقبّلته
فقال: أيعقوب يروي الحديث، ... فقلت: نعم، قال: ما قلته

وقد تتّخذ المقطوعة شكل دعابة يحرص الشاعر على إنهائها بطريقة فكاهيّة ترسم على شفتي القارئ إذا ما انتهى من قراءتها، ابتسامة خفيفة، كما في قول شهاب الدين التلّعفريّ في صديق له يدعى سليمان، وقد رمته بغلته وداسته[١٢٣]:

سمعت لابن سليمان وبغلته ... أضحوكة، خلتها إحدى قصائده
قالوا: رمته وداست بالنّعال على ... قفاه، قلت: هذا من عوائده
لأنّها فعلت في حقّ والدها ... ما كان يفعله في حقّ والده

وتبدو بعض المفاكهات نكتة بسيطة ساذجة، ولكنّها هادفة، كما في قول ابن المسجف في رجل يلقّب بدر الدين، ويستطرد إلى نفسه[١٢٤]:

قالوا: تلقّب بدر الدّين مفتخرا ... نجل الجنوبيّ من قد زيّن الأمنا
فقلت: لا تعجبوا منه، فذا لقب ... وقف على كلّ نحس، والدليل أنا

ولابن عنين مقطوعات كثيرة تشتمل على الفكاهة الحلوة، والنكتة البارعة، وقد أدرك الأقدمون ذلك، فأشاروا إلى أنّ ابن عنين كان يقصد من بعض هجائه "الدّعابة والإحماض، لا الغيبة وثلب الأعراض"[١٢٥]، كما في الأبيات التّالية الّتي أضفت عليها التورية لونا هزلياً خفيفاً، وقد قالها في الشريف الكحّال الّذي أحب

غلاماً ينبز بـ "الجمل"[١٢٦]:

فَدَيتك قل للشّريف الشّهابِ ... وإن شاط غيظاً فلا تحتفلْ
توالي الحنابلة القائلين ... بأنّ يزيداً إمام عدلْ
وتزعم أنّك من عتره الوصـ ... ـيّ، وأنتَ تحبُّ الجملْ !!

وقد تكون المقطوعة لدى ابن عنين في صورة حكاية بسيطة تتّسم بالحركة الصّاعدة الّتي تصل إلى نهاية محدّدة تقف عندها، ويتّم المعنى بها، كما في الأبيات الآتية التي قالها في بدر الدين مودود شحنة دمشق[١٢٧]:

جاء الشتاء وليس عندي جبّة ... فطفقت أطلب دار بدر الدّينِ
فتصفّحت لمّا قراها حبّة ... فبدا يواصل زفرة بأنينِ
وشكا نياط فؤاده وحرارة ... في قلبه تُربي على سجّينِ
وغدت فرائصه تهزّ كأنّها ... سعف عرته الرّيح في تشرينِ
يَنسى فيسكن ما به وتعوده الذكـ ... ـرى، فيصرع صرعة المجنونِ
فشكرت ربّي لو قراها جُبّة ... لقتلته عمداً بلا سكّينِ
وخرجت أمشي القهقرى متستّراً ... بقرون حاجبه الزكيّ ابن القينِ

أمّا الهجاء الّذي كان في قصائد طويلة فهو قليل في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة، ومن أمثلة ذلك قصيدة لأبي شامة قالها في هجاء القائمين على أموال الوقف في دمشق، وقد مرّت بنا بعض أبياتها، وقصيدة لابن دنينير قالها في هجاء القاضي حجة الدين بن الشهرزوريّ، وقد استشهد ببعض أبياتها في الحديث عن هجاء القضاة، وقصيدة ابن عنين الّتي وسمها بـ "مقراض الأعراض"، وهجا بها عدداً من وجوه دمشق. غير أنّ ابن منير قد فاق هؤلاء في قدرته على إطالة قصائده الهجائيّة، ولعلّ هذا يرتبط بموهبة الشّاعر، بالإضافة

إلى الهدف الذي كان يرمي إليه من هذا الهجاء المطوّل. من ذلك قصيدته الّتي قالها في هجاء القاضي الأعزّ، ومطلعها[١٢٨]:

يا وزيرَ الشآمِ دعوة مظلو ... م رجا من عُلاك كَشْف الظُلامة

وقد طال نفس الشاعر في هذه القصيدة، إذ بلغ عدد أبياتها مئة وأربعة وعشرين بيتاً. ولعلّ ميل الشّاعر إلى الأسلوب الوصفيّ هو الذي أتاح له هذا التطويل، كما أتاح له أن يحافظ على وحدة القصيدة ويدفع عنها التشتّت، فالقصيدة على طولها، فيها قدر كبير من الحيويّة المستمدة من تدرّج الشّاعر في الأفكار والمعاني، والبراعة في التصوير وإيثار اللغةالبسيطة الواضحة. فبعد أن استهلّ ابن منير القصيدة بأبيات تظلّم فيها إلى وزير الشام آنذاك من القاضي الأعزّ، يأخذ في وصف عمّة القاضي الّتي كانت مزيّنة ببعض الرّسوم. بيد أن ابن منير لم يقف عند حدود ما كان مرسوماً فعلاً، وإنّما راح يستدعي أصنافاً شتّى من هذه الصور، ويخيّل للقارئ أنّها مرسومة على العمّة. وقد استغرق ذلك حوالي ستّين بيتاً من القصيدة، تفنّن فيها ابن منير تفنّناً يدلّ على براعته في استغلال ثقافته المتنوعة في تشكيل معاني شعره وصوره. أجتزئ من ذلك قوله:

عِمّة تملأ الفضاء على وجهِ ضئيل ... كعُشرِ عشرِ القلامة

لو تخذنا البَحر المحيط مداداً ... وجعلنا بيت الدّنا أقلامة

لم تمثّل معشار ما صوّرت بيـ ... ـن شوابيرها يد الرقّامة

من وحوشٍ رواتع وظباء ... رتّعٍ بين أثلة وثمامة

وصنوف العشّاق من عاهر تشكـ ... ـو هواها وقحبة مستهامة

مثل قيس عشيق لبنى وعبّا ... س وفوز والقسّ مع سلاّمة

وملوك البلاد في الشرقِ والغَر ... ب وتجد ومكة وتهامة

والنبيّون كلّ من أظهر الحـ ... ـقّ وأورى بصدقهِ أعلامة

فعليها أبـــو الخلائـــق قـــد عُـــوّ ... ض دار الدنيـــا بـــــدار المقامـــــة
وعليـــها قـــابيل يدفـــن هابيـــــــــ ... ـــــل وقـــد بـــاءَ بعـــده بالندامـــــة
وعليها نـــوح وقـــد صنـــع الفلـــــ ... ـــك وأبـــدى فـــي بَنْيـــها إحكامـــة
وعليها موسى يُنـــاجي مـــن الطّـــو ... رِ إلـــه السّـــماءِ يبغـــي كلامَـــــة
وعليـــها يعقـــوب يشكـــو إلـــى الله ... بنيـــــهِ وبثّـــــه وغرامَـــــة

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو، فيذكر إبراهيم الخليل وهو يكسّر الأصنام، وشعيباً وقد أقعده المرض، ويوسف وقد جدّ في الهرب من امرأة العزيز... إلى غير ذلك من الصور المستوحاة من القصص القرآنـــي والتّـــاريخ الإسلاميّ وغير الإسلاميّ... ومع أنّ هذا التكثّر من الصور كان يصـــدر عـــن رغبة في السخرية من القاضي الأعز، فإنه كذلك يدل على رغبة ابن منير فـــي استعراض ثقافته المتنوعة.

وبعد أن انتهى الشاعر من تصوير القاضي الأعزّ في هيئة لا تصلـــح أن تكون لقاض، يخلص إلى تصوير استخفاف الناس بهذا القاضي، وتملّقـــهم إيـــاه بالمدح الكاذب، لعلّهم ينالون الحظوة عنده:

مكّـــنَ اللّـــه درّتـــي مـــن أعـــالي ... ســـفَلٍ يدّعـــون فيـــــه الإمامـــــة
كـــلّ فَســـلٍ إذا رآه تـــــردّى ... خاضعـــاً راكعـــاً ذليـــلاً أمامـــــة
قـــائلاً يـــا عذيـــر حـــاتمِ الطـــــا ... نيّ فيما يولي وكعـــب بـــن مامِـــة
يا مليح الشبـــابِ يـــا أنضـــرَ النّـــا ... س، ويـــا أحســـن البريّـــةِ قامـــــة
كلّ هذا نَصْبٌ على الخربِ البيـــــ ... ـــتِ، ليفنـــوا خلقانَـــه وطعامـــــة
وهو إذ ذاك لا يريـــد ســـوى تيـــ ... ـــهِ عليـــهم وســـطوة وعرامـــــة
يصطفي بعضـــهم ويبعـــد بعضـــا ... لـــيُرى ذا إهانـــــة وكرامـــــة

وإذا كان ابن منير قد تناول في الأبيات السّابقة صـــوراً مـــن العلاقـــات الظاهرة بين القاضي الأعزّ ومن يأتي إلى مجلسه، فإنّه تحدّث في الأبيات التالية عن طائفة من العلاقات الشاذّة الخفيّة بين هذا القاضي وبعـــض حاشيتـــه، بلـــه علاقتهم بأخته، مقذعاً في الهجاء، مستعملاً عبارات وصوراً فاحشة، يجلّ المقام عن ذكرها، وقد تدرّج الشاعر في هذا الهجاء تدرّجاً يشعر بالوصول إلى نهايـــة القصيدة، فمازج بينه وبين ذمّ الدهر الذي قدّم أمثال هؤلاء، وأخّره على فضلـــه، شاكياً من الحاجة وفقدان الصديق، محذّراً القاضي وأتباعه بأنّ الأيّام دول:

يا شباعَ البطونِ لا بـــدّ مـــن جـــو ع يليـــك البطيـــن منكـــم لجامـــــة
لا تغرّنّكـــم مهادنـــــة الدّهـــــــ ـــر فما زال مُسْـــهراً مـــن أنامـــة
كلّ شـــيء إذا تنـــاهى إلـــى حـــــ ـــدٍّ تمـــــام فـــالنقص يتلـــو تمامـــة

وهكذا كانت قصيدة ابن منير الطرابلسيّ، كغيرها من القصائد الهجائيّـــة، تجمع بين الطول ووحدة الموضوع، فالقصيدة ذات موضوع واحد هو الـــهجاء، وهدف واحد هو السخرية من القاضي الأعزّ وبيان بطلان أحكامه، ويسري فيها شعور واحد هو النّقمة على هذا القاضي وأمثاله، لذا أنهى الشاعر قصيدته كمـــا بدأها، ولم تخالف نهايتها بقيّة أجزائها، فاطّرد فيها النّسق، وتوالى المعنى، ليحقّق الغاية المرسومة لها.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن لغة الهجاء وأساليبه، فإنه يلاحظ أنّ الشّعراء، حتّى يكفلوا لأهاجيهم سرعة التأثير والذّيوع بين النّاس، نظموها في لغـــة ســـهلة بسيطة واضحة، تقترب من اللغة المحكيّة اقتراباً شديداً، مـــن ذلـــك قـــول ابـــن الساعاتي يهجو رجلاً يدعى صالحاً، مستعملاً الصيغ النثرية في بناء بيتيه[١٢٩]:

أسائلتي عـــن صـــالح إنّ صالحـــاً وإن نال حظاً مـــن عُلـــىً وتقـــدّمِ
لـــه إفـــك مـــدّاحٍ، وأبنـــة كـــاتب وكديـــة صوفـــيّ، وعقـــل معلّـــمِ

ويقترب العرقلة الكلبيّ في أهاجيه من اللغة المحكيّة اقتراباً شديداً، حتّى لتخلو – أحياناً– من الفنّ، كما في قوله يهجو وحيشاً الأسديّ[١٣٠]:

لا بارك اللّه في وحيشٍ ... فإنّه مكدّر للعيشِ
كم قال، لا قلقِل غير نابهِ ... أبيات شعر كبيوتِ الخيشِ

وتكثر الألفاظ العاميّة في هجاء ابن عنين، مثل "العواني، والعلق، ودقّ حنك، وما قصّر (بمعنى أصاب وأحسن)، والصفعان، والتجعمس"[١٣١]. كما استعمل بعض التعابير التي تستعملها العامّة في دمشق مثل "اسكتي يا فلانه" في قوله[١٣٢]:

زعموا أنّه حفيظٌ على المالِ أمينٌ، قلت: "اسكتي يا فلانه.."

ولا تكاد تخرج عبارة "يا ابن الدجاجة" عن الشتائم الّتي تتردّد على ألسنة العامّة، وذلك في قوله[١٣٣]:

يا ابن الدّجاجةِ كلّ النّاسِ كان لها ديكاً، فأنت ابن مَن حتّى أناديكا ؟!

ويردّد ابن المسجّف العسقلانيّ في هجائه بعض الشتائم البذيئة الّتي تلقيها العامة في عصره، كما في الشطر الثاني من البيت الأخير[١٣٤]:

قالوا: علامَ رفضت الشّعر مطّرحا ... فقلت: من قلّة الإنصاف في زمني
لا المدح يورثني مالاً أُسرّ به ... ولا الهجاء إلى سؤلي يقرّبني
حتى يقال أديب شاعر فطن ... حِرٍ امٍّ كلّ أديب شاعر فطنِ

وكما في عبارة "لا يساوون نعلاً" في قوله يهجو جماعة في دمشق[١٣٥]:

خمس تيجـــان لا يســـاوون نعـــلاً ... رثّ فـــــي قيمـــــة ولا مقـــــدارِ
الشحـــيرير والأعيـــور والقصّـــــا ... ر وابن المصـــريّ وابـــن الحـــوارِ

ولا يخفى على القارئ الخطأ الذي وقع فيه الشاعر، إذ ذكّر العـــدد مـــع المعدود المذكّر في البيت الأوّل.

ومع أنّ لغة الهجاء تميل بوجه عامّ إلى البساطة والوضوح، والاســـتكثار من التعابير الشعبيّة، فإنّ بعض الشعراء استغلوا معارفهم وثقافاتهم في التعبـــير عن معانيهم، وتصوير مهجويّهم. فقد استوحى الشعراء بعـــض آيـــات القـــرآن الكريم، ووجّهوها على نحو يخدم مقاصدهم الهجائيّة، كما في قول كمال الدين بن الأعمى يذمّ أحد الحمّامات، ويتذمّر من القائم عليه[١٣٦]:

كلّمـــا قلـــت: قـــد أطلـــت عذابـــي ... قال لـــــي: اخســـأ فيـــه ولا تتكلّـــمْ
قلـــت لمّـــــا رأيتـــــه يتلظّـــــى ... ربّنا اصرف عنّـــا عـــذاب جـــهنّم

ويفيد ابن عنين من القصص القرآنيّ حين ينتقد الأوضاع في مدينة دمشق لمّا فتحها الملك الكامل محمّد بعد الملك المعظم عيسى، وأعطاها الملك الأشرف موسى، وذلك إذ يقول[١٣٧]:

وكنّا نرجي بعـــد عيســـى محمّـــدا ... لينقذنا من لاعج الضـــرّ والبلـــوى
فأوقعنا فـــــي تيـــه موســـى فكلّنـــا ... حيارى، ولا منّ لدينـــا ولا ســـلوى

ويتصرّف شهاب الدين بن غانم بالحديث النبويّ الشريف الّذي يتحدّث عن فضائل شهر رمضان حين يهجو أحد المتصوّفة في قوله[١٣٨]:

ما اعتكـــاف الفقيـــه أخْـذاً بـأجرٍ بل لحكـــم قضـــى بـــه رمضـــانُ
هـــو شـــهر تغـــلّ فيـــه الشيـــا طيـــنُ، ولا شـــكّ أنّـــه شيطـــان

وضمّن الشعراء أهاجيهم بعض الأبيات الّتي قالها شعراء سابقون، كما في أبيات العرقلة الكلبيّ التي هجا بها أبا الحكم الأندلسيّ، حيث ضمّن مقطوعته بيتاً للمتنبي، ووضعه في موضعه المناسب من المقطوعة، وقد سبق أن استُشهد بـــها في الحديث عن التهاجي بين الشعراء.

ويستعير ابن عنين بيتين لجميل بن معمر العذريّ، ويجعلهما على لســـان المهجوّ كمال الدين الشهرزوريّ إمعاناً في السخرية منه، وذلك في قوله(١٣٩):

دخلت على ابن الشهرزوريّ ليلـــة وقد أغلقت دون الوزيـــر المغـــالق
فعاينتـــه ولّـــهان يرْطـــل فَيشـــة وينشدهـــا والخـــدّ بـــالدمع غـــارق
"وماذا عسى الواشون أن يتحدّثـــوا سوى أن يقولوا إنّني لـــك عـــاشق
نعم صدق الواشـــون أنـــت حبيبـــة إليّ، وإن لم تصف منـــك خلائـــق"

ويتّكئ ابن منير الطرابلسي على ثقافته بالعربيّة: نحواً وصرفـــاً وإمـــلاء وعروضاً حين يهجو القاضي الأعزّ في قصيدته الزائيّة، وممّا ورد فيـــها قولـــه يتحاور مع هذا القاضي، ويفحش في ذمّه وثلبه(١٤٠):

صاح، يا نصفَ سيبويهِ لقـــد أحـــ ـــرزت علمَ الإعراب في غير حرزِ
أنـــا خفـــض، وأنـــت رفـــع، وذا (....) نصب، فَلِمْ تخفّـــفُ همـــزي
قد صحبت النّحـــاة قبلـــك واســـتو عبت ما كان مـــن معمّـــى ولغـــز
وأراهم قد أدخلـــوا ألـــف الوصـــل علـــى (...) وأنـــت كـــالمشمئز
قلت: هذاك للضّرورة، فاستَضحـــ ـــك تيـــهاً، وقـــال كالمســـتهزي

فاحسبنها ضرورة واتّبع القو م، فقد بانَ فيك معنى التنزّي

وقد استعمل الشّعراء الشاميّون التصوير البيانيّ وغير البيانيّ في التعبير عن معانيهم وأفكارهم، وتهدف هذه الصورة بصورة عامّة إلى التشويه، لذلك كثرت الصور المنفّرة والقبيحة، كما في قول نصر الهيتي يهجو قوماً لم يجزلوا له العطاء، ويصف رقاعهم الّتي تضمّنت مرسوم ذلك، مستعيراً لها طائفة من الصّور الّتي ينفر منها الذوق السويّ[١٤١]:

رقاعهم تملأ الدنيا بما رحبت ملأ من الميـن والبهتان والزّورِ
تطوى وتنشَر والأدناس تشملها في كفّ كلّ سخين العين معرورِ
كأنّها، وعطاياهم مسطّرة فيها، لفائف ميت غير منشورِ
أو ما يقلّعه البيطار من خِرق عن كلّ أعجف غثّ اللحم معقورِ
فما لها مشبه في كلّ مخزية إلاّ مناديل ربّات المواخيرِ
لا تطّرحها إذا جاءت فإنّ لها نفعاً، ولكن لترقيع الطنابيرِ

وواضح أنّ الصور في الأبيات السابقة صور جزئيّة تحقق الازدراء بالمهجوّ، وقد استرفد الشاعر هذه الصور من مصادر تحقّق له هذا الهدف، فصور رقاع هؤلاء القوم تمتلئ كذباً وبهتاناً وزوراً، وجعلها ملطّخة بالأدناس والأوساخ، وشبّهها بلفائف ميّت، وبالخرق التي يعالج بها البيطار حيواناته المريضة، وبمناديل ربّات المواخير..

وقد تعدّدت المصادر التي استرفد الشعراء صورهم منها، فقد استوحى فتيان الشّاغوريّ القصص القرآنيّ في الأبيات التي انتقد فيها الملك الأمجد بهرام شاه، وأخذ عليه استيزاره مهذّب الدين السّامريّ، وقد سبق الاستشهاد بها. واستوحى ابن عنين قوله تعالى "ولقد زيّنا السّماء الدنيا بمصابيح وجعلناها

رجوما للشياطين"[١٤٢] في البيتين التاليين اللّذين هجا بهما الرشيد النابلسيّ[١٤٣]:

شكا شِعْـــري إلـــيّ وقـــال تـــهجو ... بمثلـــي عـــرض ذا الكلـــب اللئيـــمِ
فقلـــت لـــه: تســـلّ فـــربّ نجـــم ... هوى فـــي إثـــر شيطـــان رجيـــمِ

واستمدّ الشعراء بعض صورهم من أحداث التاريخ الإسلاميّ، فقد التفـــت العرقلة الكلبيّ، مثلاً إلى الأحداث التي جرت بين عليّ ومعاوية، وذلك حين تبرّم من البوّاب الّذي منعه من الدخول على أقرباء الملك الصالح بن رزيك[١٤٤]:

على بابكم يـــا آل رزّيـــك شـــاعر ... قنوع كفـــاه منكـــم الـــود والبشـــرُ
وقد ردّه البـــواب جـــهلاً بوجهـــه ... "كما ردّها يوماً بســـوءتهِ عمـــرو"
وحتّى حسين، وهو ســـيّد مذهبـــي ... زوى وجهه عنّـــي كـــأنّني الشِمـــر

واستعار الشعراء بعض صورهم من التّاريخ الأدبيّ، كما في قـــول ابـــن الساعاتيّ يصوّر حبّ أحد الأمراء للمدح والثناء، وأسفه على ما يذهب من مالـــه أو طعامه إذا زاره أحد، فيقرنه - على سبيل التهكّم والسخرية - بعروة بن حزام ومجنون ليلى[١٤٥]:

مظـــهر بـــالمديح وإن كـــانَ مجّـــا ... نـــاً تبـــاريح عـــروة بـــن حـــزامِ
وهو يبكـــي بكـــاء مجنـــون ليلـــى ... ســـاعة الإذنِ أو غـــداة الطعـــامِ

وانتقاصاً من أقدار المهجوّين أكـــثر الشعـــراء مـــن صـــور الحيوانـــات والحشرات، إذ شبّهوهم بالبهيمة والتيس والكلب والعجل والذّباب.... مـــن ذلـــك قول ابن الساعاتي يُزري بـــأحد الحكّـــام ويفضّـــل عليـــه القـــرد فـــي الهيئـــة والتكوين[١٤٦]:

لو كنت في زمن تقادمَ عهده لذُكرت في طه وفي ياسينِ
وتظنّ أنّك ذو جمال بارعٍ والقرد أحسن منك في التكوينِ

ويشبّه ابن السّاعاتيّ أحد الثقلاء بالعجل في الجهل وقلّة العقل، والذبابة في التطفّل، والنّمل في نقل الحديث. يقول(١٤٧):

تَجاوزْ دنيّات العُجيلِ وجهله فما يهتدي عجل يكون بلا عقلِ
أحطّ على مأكوله من ذبابة وأنقل فيهم للحديث من النّملِ

وتكثر الصور المستمدة من الطبيعة في شعر الهجاء، فعندما هجا ابن المسجّف العسقلانيّ جماعة من أصحابه شبّههم بالسّراب في قلّة النّفع، وانعدام الفائدة. يقول(١٤٨):

هم في الرّخاء إذا ظفرت بنعمة آلٌ، وهم عند الشدائدِ آلُ

ويقرن ابن منير الطرابلسيّ طباع أهل دمشق بجبالهم في الغلظة والقسوة. يقول(١٤٩):

وطباعهم كجبالهم جُبلت وقدّت من حجرْ

ويشبّه كمال الدين بن الأعمى صَحن حلاوة أهداه إليه أصحابه بأرض السماوة في اليبس والصلابة. يقول(١٥٠):

إن في صحنك المسمّى حلاوه رقّة تورث القلوب قساوهْ
كم حفرنا فلم نجد غير أرض الصحـ ـن يبساً كمثل أرض السماوهْ

واستغلّ الشعراء العيوب الخَلْقيّة لمهجويهم، واستخرجوا منها صوراً طريفة على شاكلة ابن دنينير في القاضي حجة الدين بن الشهرزوري[١٥١]:

وكنّا عملنا للمظفّر دعوة ... ليحضر فيها عندنا يوم الاثنين
فجاء، ولكنّي رأيت عجيبة ... أتى أنفه من قبل ذاك بيومين

وقد تميّز ابن عنين بطريقة في التصوير لم توجد عند غيره من الشعراء، إذ كان يشبّه بعض مهجويه ببعض، ويقارن بينهم مقارنة هزليّة، كما في قوله يهجو الخطيب الدولعيّ، ويعارض بينه وبين أحد المفسّرين[١٥٢]:

طوّلت يا دولعيّ فقصّر ... وأنت في غير ذا مفسّرْ
خطابة كلّها خطوب ... وبعضها للورى منفّر
تظلّ تهذي ولست تدري ... كأنّك المغربيّ المفسّر

والصّورة في شعر الهجاء تتنوّع بين صور جزئيّة تقوم على تطلّب التشابه الظاهريّ بين طرفي الصورة، وصور كليّة ترسم منظراً متكاملاً، أو تستقصي ملامح مشهد محدّد. والصورة الجزئيّة هي الغالبة على هذا الشعر، وقد مرّ بنا كثير منها، وأمّا الصور الكليّة فهي قليلة، وقد توسّل الشعراء إلى رسمها بالحركة والتجسيد، كما في قول ابن خروف يهجو الطبيب الدّخوار، ويجسّد طبّه سيفاً راح يحمله ويهاجم به العباد الّذين أمعنوا في الهرب والتخفّي منه، ولكنّ أبواب النجاة سدّت في وجوههم[١٥٣]:

طبع المهذّب طبّه ... سيفاً وصال على المهجْ
باب السّلامة لا يُرى ... منه ولا باب الفَرَجْ

وقد نجد بعض الشعراء يستعمل التشخيص في رسم صوره، فقد مرّت بنا الأبيات التي رفعها ابن الزويتينة إلى الملك الصالح يشكو فيها فساد القائمين على أحد الجوامع، وقد شخص الشاعر هذا الجامع وصوّره إنساناً يتظلّم ويشكو إلى الملك، ويرجوه أن يدفع الفساد عنه، أو يعيده إلى ما كان عليه. وهذا ابن عنين يصوّر الجامع الأمويّ، وقد سُلسِلَت أبوابه، بإنسان أصابه مسّ، فشدّ بالوثاق[١٥٤]:

لمّا رأى الجامع أموالـه ... مأكولة ما بين نوابهِ
جُنّ فمن خوف عليه غدا ... مسلسلاً من كلّ أبوابهِ

والصورة في شعر الهجاء عامة بسيطة واضحة قريبة المتناول، تقع في حدود مدركات الناسّ وحواسّهم، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة الموضوع، فالهجاء، ولا سيّما إذا كان في شكل مقطوعات، يرمي إلى التأثير المباشر في نفوس المهجوّين، ومن ثمّ فإنّ التفنّن في الصورة قد يحدّ من هذا التأثير، لأنّ الصورة الشعريّة بحاجة إلى قدر من التأمّل لفهم دلالاتها واستيعاب معناها.

خاتمـــــــة

تمّ في الصفحات السابقة دراسة شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، وقد بيّنت هذه الدراسة أن هذا الشعر نما وتكاثر، وأنّ بواعث القول فيه تعدّدت، واتّجاهاته تنوّعت.

وأبرزت الدراسة الدور الذي اضطلع به الشعراء الشاميّون في تطهير المجتمع الشاميّ من مظاهر الفساد الخلقيّ والاجتماعيّ، وذلك بتقبيح هذه المظاهر، وإبرازها في صور تدعو إلى إنكارها والابتعاد عنها.

وأوضحت الدراسة أهميّة شعر الهجاء في دراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، فهو يصوّر التنافس بين الشعراء وبواعثه الشخصيّة والمذهبيّة، ويصف فقر بعض الشعراء وسوء أحوالهم الاقتصادية، ويرسم صوراً طريفة لبعض مظاهر السلوك اليوميّ في المدن الشاميّة، ويكشف عن طائفة من التعدّيات التي كانت تصدر عن بعض الحكام والقضاة وغيرهم من القائمين على شؤون الرعيّة.

وأخيراً، بيّنت الدراسة أنّ جلّ شعر الهجاء كان في مقطوعات قصيرة، وأنّ هذا الشعر آثر اللغة السهلة القريبة، والصورة الواضحة الدانية.

الحواشي:

(١) مسالك الأبصار، (ميكروفلم) ١٥: ٣٠٥، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٢٠٥.

(٢) عقود الجمان (ميكروفلم) ٣: ١٨٩.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم العراق) ٣/١: ١٣٦.

(٤) عقود الجمان (ميكروفلم) ٦: ١٩٩، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٣٥٧.

(٥) المصدر السابق ٦: ٥٣٦.

(٦) المصدر السابق ٧: ٤٤.

(٧) المصدر السابق ٧: ٢٤٣.

(٨) المصدر السابق ٣: ٦٧.

(٩) فوات الوفيات ١: ١٣٤.

(١٠) المصدر السابق ٢: ٢٨٢.

(١١) ثمّة شريط مصور (ميكروفلم) في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية يحتوي على بعض أشعار ابن منير، وهو صورة عن مخطوط رقم ٢١٠ بمكتبة أمبروزيانا.

(١٢) الكواكب الدريّة: ١٧٠.

(١٣) انظر: الوافي بالوفيات ١: ٤٢٧-٤٢٨، الذيل على الروضتين: ١٨١.

(١٤) فوات الوفيات ٢: ١٩٤.

(١٥) انظر الذيل على الروضتين: ١٤٨، ٢١١، فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.

(١٦) الخريدة، قسم الشام ١: ٧٦، ٧٩.

(١٧) المصدر السابق ١: ٧٦.

(١٨) شعر ابن القيسراني: ٩٠.

(١٩) الحَشريّة: هم الذين يباشرون مال من يموت، وليس له ولد. صبح الأعشى ٣: ٤٦٠.

(٢٠) جمهرة الإسلام (ميكروفلم) ١: ٨٢.

(٢١) شعر ابن منير (ميكروفلم): ١٥٠.

(٢٢) ديوان ابن منير: ١٣٧.

(٢٣) الخريدة قسم العراق ٣/١: ١٣٦.

(٢٤) عيون الأنباء: ١٦٥.

(٢٥) المصدر السابق: ٦١٥

(٢٦) المصدر السابق: ٦١٦.

(٢٧) المصدر السابق: ٦١٤.

(٢٨) المصدر السابق: ٦٢٥.

(٢٩) عيون التواريخ ١٢: ٤٨٢.

(٣٠) عقود الجمان (ميكروفلم) ١: ٣٨٣.

(٣١) ديوان ابن عنين: ١٨٨.

(٣٢) انظر فصولاً من هذه الرسالة في معجم الأدباء ٥: ٢٢١٨.

(٣٣) فوات الوفيات ٣: ١٩٤.

(٣٤) الوافي بالوفيات ٢٢: ١٩٦.

(٣٥) ديوان العرقلة: ٩٤.

(٣٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٣.

(٣٧) المصدر السابق ٢: ٢٨٤.

(٣٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٥٤.

(٣٩) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(٤٠) بغية الطلب ٧: ٢٠٥.

(٤١) ديوان العرقلة: ٦٣.

(٤٢) انظر الخريدة قسم الشام ٢: ١٨٥.

(٤٣) عيون الأنباء: ٧١٧.

(٤٤) فوات الوفيات ٢: ٣١٨.

(٤٥) عيون الأنباء: ٦٥١.

(٤٦) المصدر السابق: ٦٥٢.

(٤٧) ديوان ابن عنين: ١٧٩.

(٤٨) عيون الأنباء: ٦٥٣.

(٤٩) ديوان ابن عنين: ١٩٤.

(٥٠) الوافي بالوفيات ٩: ٤٠.

(٥١) ديوان ابن عنين: ١٣٣.

(٥٢) فوات الوفيات ١: ١٣٥.

(٥٣) الخريدة، قسم الشام ٢: ٣٨٧.

(٥٤) عيون التواريخ ١٢: ٣٣٦.

(٥٥) المصدر السابق ١٢: ٣٣٦.

(٥٦) ديوان ابن عنين: ٢٣٩.

(٥٧) ديوان العرقلة: ٣٥.

(٥٨) فوات الوفيات ٢: ٢٨٥.

(٥٩) انظر حديثاً عن مدح المدن في كتاب: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: ٢٨٨.

(٦٠) ديوان ابن منير: ١٦٧.

(٦١) ديوان ابن عنين: ٢٣٠.

(٦٢) الخريدة، قسم العراق ٣/١: ١٢٤.

(٦٣) ديوان ابن دنينير: ٦٠٦، وللاستزادة انظر: ٥٩، ١٩٨، ٦٥٦.

(٦٤) ديوان ابن الساعاتي ٢: ٧٠.

(٦٥) معجم الأدباء ٤: ١٧٠٣.

(٦٦) فوات الوفيات ٣: ٨٧.

(٦٧) المصدر السابق ٣: ٩١.

(٦٨) المصدر السابق ١: ٣٠٧.

(٦٩) بغية الطلب ٩: ٤٢٤٣.

(٧٠) ورد ما بين علامتي التنصيص في بغية الطلب هكذا "وعشو يمنح" فلا يستقيم به الوزن والمعنى، والتصحيح من كتاب: شذرات من كتب مفقودة: ٣٩٩.

(٧١) فوات الوفيات ٣: ٣٥٨.

(٧٢) المصدر السابق ١: ١٣٩.

(٧٣) عيون الأنباء: ٧٢١.

(٧٤) ديوان فتيان: ٣٥٩.

(٧٥) تالي كتاب وفيات الأعيان: ١٤٢.

(٧٦) فوات الوفيات ٢: ١٣٣.

(٧٧) الخريدة، قسم الشام ٢: ٢٧٣.

(٧٨) ديوان ابن دنينير: ٥١٦.

(٧٩) المصدر السابق: ٦٠٩.

(٨٠) عقود الجمان (ميكروفلم) ٣: ٢٣٣.

(٨١) ديوان ابن الساعاتي ١: ١٤١.

(٨٢) ديوان ابن عنين: ٢٠٨.

(٨٣) المصدر السابق: ٢٠٣.

(٨٤) المصدر الساب: ٢٣٦.

(٨٥) المصدر السابق: ٩٤.

(٨٦) ديوان ابن منير: ١٤٦.

(٨٧) ديوان فتيان: ١٣١.

(٨٨) الذيل على الروضتين: ٢٢٢.

(٨٩) فوات الوفيات: ١٣٤.

(٩٠) ديوان ابن عنين: ١٤٣.

(٩١) المصدر السابق: ٢٣٥، وتنسب الأبيات كذلك إلى ابن المسجف العسقلاني: فوات الوفيات ٢: ٢٨٥.

(٩٢) المصدر السابق: ٢٢١.

(٩٣) ديوان ابن دنينير: ٥٧٧.

(٩٤) الذيل على الروضتين: ١١٠.

(٩٥) ديوان ابن عنين: ١٣١.

(٩٦) المصدر السابق: ١٩١.

(٩٧) الذيل على الروضتين: ٢٠١.

(٩٨) المصدر السابق: ٢٠١.

(٩٩) المصدر السابق: ٢٠١.

(١٠٠) المصدر السابق: ٢٠١، ولم يذكر أبو شامة اسم الشاعر.

(١٠١) فوات الوفيات ١: ١٣٨.

(١٠٢) المصدر السابق ١: ١٣٩.

(١٠٣) الذيل على الروضتين: ٢١٤.

(١٠٤) المصدر السابق: ١٤٨.

(١٠٥) فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.

(١٠٦) الذيل على الروضتين: ٢١٤.

(١٠٧) المصدر السابق: ٢١٤.

(١٠٨) المصدر السابق: ٢١٥.

(١٠٩)المصدر السابق: ٢٣٦.

(١١٠) المصدر السابق: ٢٣٦.

(١١١) ديوان ابن عنين: ٢٠٥.

(١١٢) فوات الوفيات ١: ١٢٧.

(١١٣) المصدر السابق ١: ٢٠٣.

(١١٤) وفيات الأعيان ٥: ٣٣٤-٣٣٥.

(١١٥) فوات الوفيات ٢: ٣١٩.

(١١٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(١١٧) المصدر السابق ١: ١٠٣.

(١١٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٣.

(١١٩) الخريدة، قسم الشام ٢: ٩٨.

(١٢٠) ديوان ابن عنين: ٢٣٥.

(١٢١) فوات الوفيات ١: ١٣٦.

(١٢٢) ديوان ابن عنين: ١٣٧.

(١٢٣) فوات الوفيات ١: ١٤٧.

(١٢٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(١٢٥) عقود الجمان (ميكروفلم) ٦: ٢٠٣.

(١٢٦) ديوان ابن عنين: ١٣٥.

(١٢٧) المصدر السابق: ٢٠٣.

(١٢٨) شعر ابن منير (ميكروفلم): ١٧٦.

(١٢٩) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٠.

(١٣٠) ديوان العرقلة: ٥٦.

(١٣١) ديوان ابن عنين (المقدمة): ٢٦.

(١٣٢) المصدر السابق: ٢٢١.

(١٣٣) المصدر السابق: ٢٠١.

(١٣٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٦.

(١٣٥) المصدر السابق ٢:٢٨٦.

(١٣٦) المصدر السابق ٣: ٩١.

(١٣٧) ديوان ابن عنين: ١٣٢.

(١٣٨) فوات الوفيات ١: ١٢٧.

(١٣٩) ديوان ابن عنين: ١٩٧.

(١٤٠) ديوان ابن منير: ١٤٧.

(١٤١) الخريدة قسم الشام ١: ٢٣١.

(١٤٢) الملك، آية: ٥.

(١٤٣) ديوان ابن عنين: ١٨٨.

(١٤٤) ديوان العرقلة: ٤٨.

(١٤٥) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٢.

(١٤٦) المصدر السابق ٢: ٩.

(١٤٧) المصدر السابق ٢: ٧٢.

(١٤٨) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(١٤٩) ديوان ابن منير: ١٦٧.

(١٥٠) فوات الوفيات ٣: ٩١.

(١٥١) ديوان ابن دنينير: ٥٧٥.

(١٥٢) ديوان ابن عنين: ١٨٨.

(١٥٣) فوات الوفيات ٢: ٣١٨.

(١٥٤) ديوان ابن عنين: ١٥٤.

المصادر مرتّبة هجائياً حسب عنوان الكتاب

أولاً: المصادر المخطوطة:

١- جمهرة الإسلام ذات النّثر والنّظام، مسلم بن محمود الشّيزريّ، ميكروفلم رقم ٩٢٢٣ أدب، معهد إحياء المخطوطات العربيّة، القاهرة.

٢- شعر ابن منير الطرابلسيّ، مخطوط رقم ٢١٠، مكتبة أمبروزيانا، وعنه شريط مصوّر في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

٣- عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، أبو البركات مبارك بن أبي الشّعار الموصلي، ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

٤- مسالك الأبصار في اخبار ملوك الامصار، ابن فضل الله العمري، ميكروفلم رقم ٣٦٥، الجامعة الأردنية.

ثانياً: المصادر والمراجع المطبوعة:

٥- الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والمماليك، د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت ودمشق، ١٩٨٩.

٦- تاريخ دمشق، ابن القلانسي: أبو علي حمزة بن أسد، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسّان، دمشق، ١٩٨٣.

٧- تالي كتاب وفيات الأعيان، فضل اللّه بن أبي بكر الصقاعيّ، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤.

٨- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذّيل على الرّوضتين، أبو شامة المقدسيّ، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.

٩- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، الحافظ ابن عساكر، هذبه عبدالقادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
١٠- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهانيّ، (قسم شعراء الشّام) تحقيق د. شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٥.
١١- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، (قسم شعراء العراق) تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي العراقيّ، بغداج، ١٩٦٤.
١٢- ديوان ابن دنينير، ابراهيم بن أحمد (رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة) تحقيق ودراسة محمود شاكر سعيد، جامعة الأزهر، ١٩٨١.
١٣- ديوان ابن السّاعاتي، أبو الحسن علي بن رستم، تحقيق أنيس المقدسيّ، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٨.
١٤- ديوان العرقلة الكلبيّ، حسّان بن نمير، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٠.
١٥- ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ؟
١٦- ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة، دمشق، ١٩٧٦.
١٧- الشعر العربيّ في بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ د. شفيق محمد الرقب، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣.
١٨- شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها د. إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨.
١٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أبو العباس أحمد بن علي القلقشنديّ، المؤسسة العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.
٢٠- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، تحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢١- عيون التّواريخ، محمد بن شاكر الكتبيّ، تحقيق د. فيصل السّامر ونبيلة

عبدالمنعم، وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٧.
٢٢- فوات الوفيات، محمّد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣.
٢٣- الكواكب الدريّة في السيرة النورية، تقي الدين أبو بكر بن أحمد ماضي شهبة، تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١.
٢٤- معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.
٢٥- وفيات الاعيان وأنباء الزّمان، ابن خلكان، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.